مجموعة قصصية

## لطيفة قرناوط

# نبض الأنوثة لا يموت

نبض الأنوثة لا يموت

مجموعة قصصية

# نبض الأنوثة لا يموت

## لطيفة قرناوط



اسمحي لغربتي أن تنطفئ على وقع عودتك كلمة واحدة يا سارة لأمنحك عمري مع وعدي ألا أترك يدك مرة أخرى وألا أضيعك أبدا حتى لو اشتدت العواصف في طريقنا سأبقى على حبنا يا سارة و أعيش عمري أغذي جمراته لهيبا لعشقي ، لا يخمد أبدا ، كلمة واحدة انتظارها هو ما يبقيني على قيد الحياة هو ما يمنعني من الاستسلام للموت الذي يترصد بي سامحي ضعفي صغيرتي ولا تحرميني هذه الكلمة سأنتظرها يا قلب القلب متى استطاع قلبك أن ينطقها سأنتظرها حياتي كلها لأن حياتي ما عادت حياتي منذ ملكتها ذات مطلع شمس و غروبها قد طال منذ اغتربت أنت عنها.؟

من مواليد القصبة بالجزائر العاصمة حاصلة على ليسانس في العلوم القانونية والادارية وشهادة الكفاءة المهنية للمحاماة .. محامية معتمدة لدى المحكمة العليا و مجلس الدولة.؟

ISBN 978-9931-615-86-6

9 789931 615866

تصميم الغلاف
Faith

المثقف

Elmouthakaf2@gmail.com

لطيفة قــــرناوط

# نبض الانوثة لا يموت ..

مجموعة قصصيّة

الطبعة الأولى

السداسي الأول 2017م - 1439هـ

ردمك :978-9931-615-86-6

جميع الحقوق محفوظة لدار المثقف للنشر والتوزيع

العنوان: رقم 11 شارع الإستقلال - باتنة - الجزائر

هاتف: 86 73 49 675 213+ فاكس: 49 20 85 033

البريد الإلكتروني: Elmouthakaf2@gmail.com

يمنع إعادة إصدار أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: إيمان بلفاسي

المدقق اللغوي: جميلة بوجاجة

# إهداء

إلى والدتي الّتي نسيت أنّها أنثى وتذكّرت دائما بحبّ و رضا أنّها أمّ

إلى من تقف سنواتي وحروفي أمامها خجلة عاجزة عن وصفها

إلى من علّمني حبّها معنى العطاء ونكران الذّات

إليك أهدي خطواتي الأولى في الكتابة

ولك أقول نبض أنوثتك لم يمت لأنّك كنت ومازلت في عيني أجمل أنثى

إلى من علّمني حروف الأبجديّة وزرع بداخلي عشق اللّغة العربيّة

إلى ضعفك و قوّتك... إلى والدي

إلى أشقائي... إلى شقيقاتي رفيقات روحي.

# نبض الأنوثة لا يموت

في إحدى القرى النّائية في شرق البلاد بالجزائر حيث تغلب البساطة على المكان، كانت أمّ مريم تخبر ابنتها أنّه سيتمّ تزويجها بعد خمسة أيام، لم تكن مريم وهي في عمر الرّابعة عشر لتفهم معنى ذلك، فلم يتم تحضيرها قبلا لمعنى الزّواج، كلّ ما شرحته لها والدتها أنّها ستنتقل إلى بيت آخر فيه رجل اسمه زوجها وعليها أن تطيعه في كلّ أوامره وتقوم بخدمته و تلبي كلّ طلباته، لم تترب مريم على مناقشة والدتها ولا عصيان الأوامر، بل على تنفيذ ما يطلب منها لأنّ والديها أدرى بمصلحتها. ليلة العرس تمَّ إلباس مريم فستانا جديدا وتغطية وجهها بخمار شفاف

النّساء من حولها كنّ تزغردن، تغنين وترقصن، هي كانت جامدة في مكانها غير واعيّة لما يحدث، هذا عرسها وبعد قليل ستتعرّف على زوجها، هذا الرّجل الذي لم تره يوما ولم تعرفه، كلّ ما عليها هو أن تخدمه وتطيعه وانتهى، تلك ستكون حياتها. في بيت زوجها المتكوّن من غرفة واحدة. كانت جالسة على أفرشة وضعت على الأرض لتشكّل سريرا مزدوجا، هناك في

أقصى الغرفة يوجد فرن صغيرعليه قدر ثمّ أربعة صحون وأربعة كؤوس و قلة ماء مصنوعة من الطين

فجأة سمعت صوت الباب يفتح، ورأت ظلّ رجل لم تتجرأ على رفع بصرها والنّظر إليه، ما إن دخل وأغلق الباب حتّى بدأ في نزع ثيابه... جلس أمامها... رفع خمارها الشّفاف... تجرأت أخيرا ونظرت إليه وكانت المفاجأة. رجل في العقد الرّابع من عمره أسمر البشرة، لديه شاربان وشعر أسود تخلّلته شعيرات بيضاء، كان الرّجل يكبرها بأكثر من عشرين سنة.

لا أحد حضّرها لما كان بعد ذلك، عندما استيقظت في الصّباح لم يكن هو هناك كان كلّ شيء يؤلمها، تذكّرت ليلة البارحة وتلك القسوة الّتي أخذها بها وانفجرت بالبكاء، أهذا هو الزّواج يا له من عناء ستعيشه في هذا البيت.

بعد شهرين علمت مريم أنّها حامل وأنّها ستصبح أمّا، كيف لطفلة في الرّابعة عشر من عمرها أن تربي طفلة أخرى، لم تكن مريم تعي ما عليها فعله كانت تائهة لكن والدتها أخذتها من كتفيها وراحت تنصحها بلهجة شديدة وقاسيّة:

ـ أنت لم تعودي طفلة لقد أصبحت زوجة وستصبحين أمّا بعد عدّة أشهر، يجب عليك أن تتصرفي كذلك

ـ لكنّني لا أعرف ما عليّ فعله.

ـ ستتعلمين مثل كلّ النّساء، أتظنين أنّني كنت أعرف شيئا عندما تزوّجت والدك وأنجبتك أنت وإخوتك، لكن هذا هو قدر النّساء في هذا العالم تتزوّجن، تلدن، تخدمن أزواجهن، وتربين أبناءهن، هذا هو قدرنا وهذا ما خلقنا من أجله.

عندما جاء موعد الولادة ذهب قاسم مسرعا إلى والدة مريم الّتي أسرعت إلى بيت ابنتها من أجل توليدها، ففي ذلك المجتمع كانت كثير من العائلات ترفض الذّهاب بنسائها إلى المستشفيات، فتعالجن أنفسهن بالأعشاب والوصفات المتوارثة عن أمهـــاتهنّ وتولّدن بعض.

كانت الولادة صعبة باعتبار صغر سنّ مريـــم وكذلك باعتباره مولودها الأوّل، وضعت بنتا صغيرة الحجم لكن لم يكن يبدو أنّها تعاني من شيء، عندما تمّ إخبار زوجها قاـــــم بدا الغضب على وجهه، استدار وانصرف دون أن يسأل عن حال المولودة أو زوجته أو يطمئن عليهما، في المساء عندما عاد وجد والدي زوجته بانتظاره، غادرا بمجرد عودته، حينذاك نـــظر إلى المولودة ثمّ إلى زوجته وقال لها:

ـ بنت، ألم تكوني قادرة على إنجاب ولد؟

ـ هذا ما أعطاه الله لنا والحمد لله أنّها بصحة جيّدة.

ـ أنا أريد ولدا، ماذا سأفعل ببنت سأتحمّل همّها فقط إلى أن يأتي

رجل آخر ليريحني منها، أمّا الولد فهو السّند وهو الذي سيحمل اسمي واسم عائلتي من بعدي.

سكتت مريم منكسرة الفؤاد ولم تجد ما تجيب به.

مرّت الأيّام ووالدة مريم تزورها من حين لآخر تحضر لها بعض السّمن والعسل، زاد وزن ابنتها بعض الشّيء بينما كان زوج مريم لا يعود إلّا مساءً يرفض حمل ابنته هبة أو النّـــــظر إليها وكأنّه لا يريد الاعتراف بها كابنة له.

كان قاسم يعمل في الحقول ومدخـــــوله ضئيل ورغم مساعدات والدة مريم لها إلّا أنّها كانت بسيطة وحياة مريم وابنتها تمرّ صعبة وقاسيّة، قرّر قاسم النّزوح إلى العاصمة وتجريب حظّه هناك.

ـ ولمن ستتركنا أنا وابنتك، أنت تعلم أنّه لا يمكن أن نبقى هنا وحيدتين.

ـ سأعيدك إلى بيت والدك قبل أن أسافر.

انقبض قلب مريم وذهبت ظنونها إلى ما لا يحمد عقباه هـــل سيطلقها؟ رغم قصر مدّة زواجها إلّا أنّها تعلّمت أنّ المرأة الّتي تغادر بيت والديها إلى بيت زوجها لا تعود إليه إلّا زائرة وإن عادت مطلّقة ستكون وصمة عار على أهلها، لذا ورغم مرارة عيشها مع قاسم إلّا أنّها لا يمكن أن تتصوّر أنّه سيطلقها.

ـ ماذا تعني بأنّك ستعيدني إلى بيت والدي؟

ـ يعني أنّك ستبقين في بيت والدك إلى أن أعود.

ـ ومتّى ستعود؟

ـ لا أعلم حسب ظروفي هناك.

ـ يمكن أن تبقى طويلا هناك؟

ـ وماذا أفعل أنت ترين أنّ العمل هنا غير مجدٍ ماذا تريدينني أن أفعل أن أتسوّل؟

ـ خذنا معك.

نظر إليها قاسم نظرة يتطاير منها الشّرر...

ـ هل جننت، إلى أين آخذك؟

ـ وماذا في ذلك أنا زوجتك وهذه ابنتك.

ـ نعم، لكي تجدي الحرّيّة هناك وتعيشين على هواك.

ـ ما الذي تقوله يا رجل عن أيّ حرّيّة تتحدث أنا زوجتك ومكاني حيث مكانك.

ـ لا تهذي يا امرأة أنا لا أعلم حتّى إن كنت سأجد مكانا للمبيت هناك وأنت تريدين منّي أخذك وابنتك هذه.

ـ حسنا ولكن عندما تتحسّن ظروفك يمكنك أخذنا أليس كذلك؟؟

استدار إليها موجّها سبابته إلى وجهها...

ـ اسمعي يا امرأة أنت ستبقين هنا عند والدك مع ابنتك وإن لم

يعجبك الأمر سأطلقك وأرحل هل فهمت؟
صعقت مريم ممّا سمعته وتملكها الخوف.
ـ ولكنّني حامل، ربّما أحمل ابنك الذي سيحمل اسمك.
بدت الدّهشة على وجه قاسم وهو يقول:
ـ ولم لم تخبريني؟
ـ كنت أريد رؤية القابلة قبلا لأتأكد
ـ في كلّ الأحوال أنا مسافر لوحدي

سافر قاسم إلى العاصمة، انتقلت مريم وابنتها للعيش في بيت والديها وقد تأكد حملها، كان والد مريم رجلا شديدا لم تره يبتسم يوما ولكنّه كان رجلا مستقيما، كأغلب الرّجال هناك يؤمن أنّ مكان المرأة هو بيتها وأنّها خلقت لخدمة زوجها وأولادها، أمّا الرّجل فهو المبجّل، لذا أدخل ولديه الذّكور إلى المدرسة من أجل التّعلّم ولم يدخل بنتيه، كان ولديه متعلّمان وبنتيه أميتان.
أصيبت ابنته الثّانية بمرض لم يُعرف ماهو، أخذها إلى المداوين بالأعشاب ورفض أخذها إلى المستشفى ليكشف عليها طبيب، توفّيت ابنته بهذا المرض، حزنت عليها والدتها حزنا شديدا أخفته بداخلها لكنّ سماته ارتسمت على وجهها وانعكست على صحتها.

بعد قرابة سبعة أشهر من سفر قاسم كانت أمّ مريم تولّد ابنتها، عندما صرخ المولود نظرت مريم إلى والدتها وهي تسيطر على آلامها:

ـ ولد أم بنت؟؟

تردّدت أمّ مريم قليلا ثمّ نظرت إلى ابنتها وابتسمت مرغمة وهي تقول:

ـ بنت... كلّ ما أعطاه الله جيّد ونحمده عليه.

سقطت دموع مريم وهي تقول:

ـ بنت أخرى لن تعيد والدها إلى هنا.

تأثّرت أمّ مريم بكلمات ابنتها وأرادت مواساتها.

ـ المهمّ أنّها بصحة جيّدة يا ابنتي وغدا ستنجبين الولد.

ـ كيف يا أمي وزوجي في بلد وأنا في بلد؟؟

ـ سيعود يا ابنتي لن ينهي عمره هناك.

ـ متى يا أمي؟ ولماذا سيعود؟ فأنا لا أنجب سوى البنات وهو يريد الولد.

ـ أنت مازلت صغيرة يا ابنتي والحياة أمامك، غدا سيرزقك الله الولد، هيّا يا ابنتي أنت الآن نفساء والحزن ليس جيّدا لك، سيضرك ويقطع حليبك، هيّا يا ابنتي افرحي بما أعطاك الله وغدا يفرجها عليك.

أثناء سفر قاسم اتّصل مرّة واحدة أعلمه فيها شقيق مريم أنّها أنجبت بنتا ثانيّة وأنّهم أسموها "آية" لأنّهم انتظروا اتّصاله من أجل تسميتها لكنّه لم يفعل في الوقت المناسب أجابه ببرود أنّه موافق على الاسم، وأنّ ظروف عمله مازالت لم تستقر، لم يتحدّث عن المصاريف ولم يرسل دينارا واحدا منذ سافر.

عندما عاد موسى شقيق مريم إلى البيت وجد أخته تنظّف بيت الخلاء نظر إليها قائلا:

ـ لقد اتّصل زوجك ولكنّه لم يرسل فلسا واحدا كالعادة، هذا يعني أنّك تعيشين وبنتيك عالة علينا.

ابتسم ابتسامة خبث وانسحب.

أحسّت مريم بضيق شديد في صدرها أوجعتها كلمات شقيقها وحال هذا الزّوج الذي لم تفرح معه يوما منذ زواجها به، ضاق نفسها وأحمرّ وجهها، عندما رأتها أمّها سألتها ما بك؟ لكنّ مريم لم تجب، لم يكن لها حقّ الشّكوى ففي النّهاية شقيقها محقّ وهو من يصرف على البيت.

في المساء أصابتها حمّى شديدة لكنّها لم تستطع حتّى مناداة والدتها تحمّلت ألمها وحدها، تحمّلت رجفتها في صمت، كان

البرد الذي يسيطر على جسدها رغم تصبب العرق في كلّ شبر من جسدها الملتهب حرارة، عندما جاءت والدتها توقظها في الصّباح وجدت ابنتها في حالة يرثى لهان وفراشها مبللا من العرق طيلة اللّيل.

ـ مريم استيقظي يا ابنتي.

فتحت مريم عينيها بصعوبة ونظرت لوالدتها.

ـ ما بك يا مريم لم أنت في هذه الحالة؟

تحوّلت مريم بعينيها إلى فراشها ثمّ عادت بوعيها إلى ليلة الأمس وتذكرت حالتها.

ـ أظنّ أنّها الحمّى يا أمي.

اندهشت أمّ مريم وفزعت وبدا القلق على وجهها، فهي مازالت تحمل بداخلها آثار فقدانها لابنتها الأولى.

ـ أتقصدين أنّك بت اللّيل كلّها تصارعين الحمى؟

ـ نعم، يا أمّي.

ـ سامحك الله يا ابنتي ولماذا لم تناديني؟

ـ أخفضت مريم عينيها متحاشية النّظر إلى وجه والدتها وهي تقول:

نعم، سامحني الله يا أمّي على العبء الذي تتحمّلينه بسببي.

ـ ما هذا الكلام الذي تقولينه يا مريم هل جننت، أنت ابنتي وابنتيك

حفيدتاي وهذا بيت والدك، غدا سيعود زوجك وقد تحسنت أحواله وستعودين إلى بيتك وتعود الأمور إلى نصابها.

ـ وإن لم يعد يا أمّي.

ـ لماذا لا يعود هو زوجك ووالد ابنتيك؟

رفعت مريم ناظريها إلى وجه والدتها وقالت في قلق واضح والدّموع تغشي عينيها:

ـ بنتان يا أمّي لم يعترف بهما يوما، هو يريد الولد وأنا لست قادرة على منحه ما يريد، ربما يتركنا ويعيد الزّواج هناك، فلا شيء هنا يدفعه للعودة.

ـ لا تقولي هذا يا ابنتي انزعي عنك هذه الوساوس واستعيذي بالله من الشّيطان.

طيلة مدّة إقامته في العاصمة لم يرسل زوجها فلسا واحدا ولا رسالة يسأل فيها عن حال زوجته أو حال ابنتيه كان داخل مريم حزين منقبض وتنتابها رغبة شديدة في الصّراخ لكنّها لا تفعل وأنّى لها أن تفعل. عندما تخلو إلى سريرها ليلا وتنام ابنتيها تترك العنان لدموعها الصّامتة، أصبحت مريم مكسورة الفؤاد، مقصوص جناحيها لم تكن تأكل حتّى تشبع ولطالما أسكتت صرخات جوعها ونامت خاويّة المعدة رغم أنّها ترضع مولودتين

ليس بينهما سوى إحدى عشر شهرا، إلّا أنّها لم تكن قادرة على الشّبع وهي تعلم أنّها تعيش عالة على والديها وشقيقها.

عندما طالت إقامة قاسم في العاصمة دون أن يكلف نفسه إرسال بعض المال إلى زوجته وبنتيه ضاق موسى ذرعا وقرر أن يتصرف، لا يمكنه البقاء على هذا الحال يصرف على والديه وكذلك على شقيقته وبنتيها، بينما زوجها مرتاح في العاصمة يعيش حياته، خاصّة أنّ شقيقه الثّاني متزوّج ومستقل بعائلته ولا يساهم معه في مصاريف البيت.

تحدّث إلى والده وأقنعه بضرورة سفره إلى زوج شقيقته من أجل التّفاهم معه والوصول إلى حلّ، كان والده متخوّفا من أن يغضب زوج ابنته ويطلّقها فتصبح مطلقة أمام النّاس ويصبح بقاؤها دائما في بيته، فيلحقهم العار وأنّه ربّما يجب الانتظار أكثر حتّى تستقرّ أحوال قاسم هناك، لكنّ موسى أخبره أنّه سيتحدّث معه بحكمة وسيخبره أنّ الناس بدأت تتحدّث عن سبب تركه لزوجته وابنتيه ويقنعه بإحضارهنّ له ولن يترك الأمور تصل إلى الطّلاق، كما سيسعى معه إلى تسجيل الزواج بعد تثبيته أمام المحكمة

**********

في احدى البيوت الّتي تتكوّن من غرفة واحدة بحي القصبة العتيق أحد أقدم أحياء العاصمة كانت مريم تحضر الطّعام بالقليل من الخضر المتواجدة بالبيت، مرّعليها قرابة السّنتين منذ أحضرها شقيقها إلى هنا هي وبنتيها مرّت أيّامها ثقيلة ورتيبة حملت مرّة أخرى وأجهضت ، كانت تعرف أنّ السّبب هو قلّة الأكل وسوء التّغذية كما أنّها لا ترى زوجها إلّا قليلا يدخل في ساعات متأخّرة من اللّيل، يَندَسُّ في فراشه موليا ظهره لها وينام كانت له حياة أخرى خارج هذه الغرفة هي تعرف ذلك وتحسّ به لكن لم يكن بإمكانها قول شيء تشمّ رائحة نسائه كلّما اندسّ ليلا إلى جوارها رائحة عطر شديدة تكاد تكتم أنفاسها يتألّم غرورها في صمت لكن ما يفتأ أن يداهمها إحساس غريب بالرّاحة لأنّ هذا الوحش النّائم بداخله لا يطالبها بواجباتها إلّا نادرا، ربّما عندما كانت نقوده تنقصه وتبعد عنه نساؤه كان يأتيها فتستسلم له مرغمة لا تملك حقّ الرّفض كجسد ميت غادرته الحياة ثمّ تستدير إلى هناك وتترك العنان لدموعها الصّامته.

ذات مساء دخل قاسم البيت باكرا على غير عادته، عندما رأته ارتبكت، فهي لم تعتد وجوده بالبيت ولم يكن بينهما حوار أو تواصل.

ـ سأسافر إلى فرنسا خلال يومين.

أجابت مريم في تردّد

ـ هل ستبقى طويلا.

ـ لا أعلم سأبحث هناك عن عمل.

أصابتها الدّهشة بعد أن أدركت أنّه ليس مسافرا في رحلة فقط.

ـ وماذا عنا نحن؟

ـ ماذا عنكن؟؟

ـ هل ستتركنا هنا؟

ارتسمت على جانب شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يقول:

ـ بالطّبع إلّا إذا أردت العودة إلى بيت أهلك رغم أنّني أشك أنّهم سيرحبون بذلك.

ازدردت مريم ريقها وأصابها الجزع وهي تتخيّل نفسها عائدة لبيت والديها مع ابنتيها، استجمعت قواها وهي تقول:

ـ كيف يمكننا العيش هنا أنا وبنتيك؟

ضحك قاسم ساخرا من سؤالها

ـ أنت منذ سنتين وأنت تعيشين وبنتيك وحدكن وتتدبّرين أمرك دون الحاجة إليّ فلا تدعي خلاف ذلك

تدرك مريم أنّ ما يقوله قريب جدّا من الواقع لكن على الأقلّ دخوله وخروجه عليهنّ كان كافيّا أمام النّاس، كما أنّه إن تركها وابنتيها هنا فستمتن جوعا ولا مصدر لهنّ، صحيح أنّه بالكاد كان

ينفق ولكنّها كانت تتدبّر أمورها لتسدّ جوع بنتيها وجوعها ولم تستطع أن تمنع نفسها من طرح سؤالها مباشرة.

ـ كيف سأطعم البنتين؟

اتّجه قاسم إلى الجهة الأخرى من الغرفة يغيّر معطفه وكأنّه لم يسمعها لكن صوته وصلها وهو يقول:

ـ سأرسل لك بعض المال كلّما استطعت

ولى لها ظهره وخرج، عرفت هي أنّ الأمر محسوم، سيسافر ويتركها هنا مع بنتيها، أحسّت أنّ أبواب الأرض أغلقت في وجهها، لم يكن بيديها أيّة حيلة، ما الذي ستفعله، لو بقيت هنا ستموت بنتيها جوعا ولو عادت لبيت أهلها، هل سيقبلها شقيقها خاصة بعد موت والدتها وسندها الوحيد، شقيقها موسى يتكفّل بوالدها مرغما أمام النّاس وزوجته بالكاد تحتمل وجوده، فكيف لو ذهبت هي وبنتيها كذلك لن تتحمل زوجة شقيقها وجودهن وربّما لن يقبل موسى ذلك فسبق وأن أعادها إلى زوجها بعد أن ضاق بها وببنتيها.

ـ يا إلهي ما الذي سأفعله؟

انقبض صدرها وأحسّت بأنّها ستختنق انتبهت فجأة على صوت بكاء آية أسرعت إليها تضمها، ثمّ جذبت هبة إلى حضنها وعبراتها تتسارع على خدّيها لا تعرف أيّ قدر هذا الذي لم يقسم

لها من الحياة سوى كلّ هذا الألم و البكاء وهي لم تكمل من العمر تسعة عشر سنة.

**********

سافر قاسم ولم يلتزم بوعده، لم يرسل لها شيئا من المال، منذ خمسة أشهر وهي تعيش على بعض الصّدقات من جارتيها، ما يتبقى من أكل أو خبز يابس تتدبّر به أمورها، كما أنّها كانت تخرج في الصّباح الباكر إلى مكبّ النّفايات تفتش الفضلات لعلّها تجد فيها ما يصلح للأكل، لم يسأل عنها شقيقها ولا مرّة كأنّه كان يخشى إن هو فعل أن تتعلّق به وترجوه من أجل أخذها معه.
كانت تحمل آية بيد وتمسك هبة بالأخرى، تتجوّل وتسير بدون وجهة تتذكّر كلمات صاحبة البناية الّتي أعلمتها أنّ إيجار السّنة بقي على استحقاقه شهران فقط ويجب عليها أن تدفعه أو تترك المنزل، ضاقت عليها الأرض بما رحبت لم تعرف ماذا تفعل ولم تدر بنفسها إلّا وهي في الشّارع تجرّ ابنتيها معها.
ما الذي ستفعله هي لا تستطيع تدبّر قوت يومها، فكيف ستتدبر إيجار سنة كاملة في أقل من شهرين، يا إلهي ما الذي ستفعله،

انتبهت على صوت المؤذّن القريب جالت ببصرها فرأت المسجد هناك، ساقتها قدماها باتّجاهه دون وعي منها، انتظرت حتّى اكتملت صفوف النّساء، اقتربت إلى آخر الصّفّ وضعت آية وهبة على يسارها ودخلت في الصّلاة، لم ينقطع صوت نحيبها، عندما سلّم الإمام رفعت أكفّ الضّراعة إلى الله وعبراتها تسابق دعواتها وشرعت في مناجاة صامتة غلبت عليها كلمة يا رب بصوت مسموع، عندما انتبهت على المرأة الجالسة أمامها تشدّ ذراعها في رفق نظرت إليها لا تتبين وجهها تحت غمائم دموعها الّتي شرعت تمسحها بكم حجابها.

ـ اعذريني يا ابنتي لكنّني أحسست ببكائك منذ أقام الإمام الصّلاة، خير إن شاء الله ما الذي يبكيك هكذا؟

صمتت مريم متوجّسة ولم تدر ما تقوله لهاته الغريبة.

ـ يا ابنتي نحن لا نعرف بعضنا ولكنّنا في بيت الله، ربّما لاقانا الله هنا خصيصا لعلّي أستطيع مساعدتك

نظرت مريم إلى وجه المرأة لعلّها تقرأ عليه شيئا، لكنّها لم تستطع وأنّى لها ذلك، هي المرأة العشرينيّة الّتي لم تخالط في حياتها سوى ثلاثة جارات وزوج كانت تلتقيه صدفة، هي المرأة الأميّة الّتي لم تدخل يوما مدرسة ولم تستطع فكّ حرف، فكيف لها أن تفكّ وجه هذه المرأة ولكنّها تفكرت ووجدت أنّ البوح بما

في قلبها لامرأة غريبة لن يضرّها في شيء بل ربّما سيساعدها على إفراغ شيء من ضيقها وهمّها، لم تجد نفسها إلّا وهي تقصّ عليها قصّتها؟ وكيف تركها زوجها وحيدة مع بنتين دون مال ولا عائل.

كانت المرأة تسمع منتبهة في صمت، عندما انتهت مريم من الكلام تفرست فيها المرأة الّتي كانت تتجاوز الخمسين بقليل ثمّ قالت لها:

اسمعي يا ابنتي أنت في مأزق كبير ولكن لن يخرجك منه إلّا قوتك وشجاعتك.

ـ كيف يا خالة وأنا لا حول لي و لا قوة.

أمسكتها المرأة من ذراعها وهزتها قائلة.

ـ يجب أن تتخلّصي من هذا الوهن وهذا الضّعف.

نظرت إلى الفتاتين اللتين كانتا تلعبان هناك ثمّ أضافت.

ـ أنت مسؤولة عن ابنتين حياتهما معلّقة بك، أنت اليوم لست المرأة ولا الزّوجة ولا الفتاة الغضّة، أنت الأمّ، إن سقطتِ سقطت معك ابنتاك، وإن ضعفت تضررتا هما ولا يحقّ لك كـــــأمّ أن تضعفي إمّا أن تحاربي من أجلهما أو تتخلي عنهما لدور الرّعاية وهناك كثير من الأزواج لم يرزقهم الله الأولاد، سيتمّ تبنـــــيهما وتوفّر لهما حياة رغيدة و تعليما جيّدا، عليك أن تختاري طريقك،

بنتيك في حضنك صامدة من أجلهما أو ضعيفة مستكينة بدونهما.
كانت عينا مريم تراقبان بنتيها في فزع ممزوج بالألم وهي تتخيّل حياتها بدون ابنتيها، أيعقل أن يكون لها حياة بدونهما، لكـــــن ألم يكن أحسن لهما أن تتبناهما عائلة كريمة قادرة على منـــــــحهما الحياة الرّغيدة الّتي يستحقانها أحسّت بألم يعتصر قلـــــبها وهذه الهواجس تراودها، لا أحد في الدّنيا يمكنه أن يحمل لبنتيها حبّا بقدر الحبّ الذي تحمله هي لهما، كيف يمكن أن تتخلى عنهما ستموت بدونهما، ضاق نفسها في صدرها وأحسّت أنّها تختنق.
ناولتها المرأة الّتي كانت منتبهة لشرودها قارورة ماء صغيرة أفرغت ما فيها في جوفها مرّة واحدة كأنّها عطشى منذ أيّام مضت.
نظرت إلى المرأة الجالسة قبالتها وقالت:
ـ لا أستطيع التّفريط فيهما سأموت بدونهما، أريد أن أقاتل من أجلهما لكنّني لا أعرف كيف؟؟
ـ اسمعي يا ابنتي لا أحد في هذه الحياة عاشها سهلة، كلّ يقاتل من جانبه، أنا ترمّلت على خمسة أولاد منذ تسع سنوات ولا أحذ أنقذني، كنت ضعيفة مثلك رفض والدي إرجاعي إلى المنزل إلّا بدون أولادي، اشترط عليّ أن أترك أولادي لعائلة زوجي لأنّهم يحملون اسمهم وليس اسمه وأعود إلى بيتنا ليزوجني من رجل

آخر، لكنّني لم أستطع ذلك، الحمد لله أنّ زوجي ترك لنا بيتا ملكا له، لكن لكي أعيش أنا وأولادي خرجت إلى الخدمة في البيوت، غسلت الملابس والأواني والأراضي والمراحيض، تحمّلت أنواع النّساء ولكنّني لم أقبل أن أتخلى عن أولادي ولازلت أكافح من أجلهم ولم أندم يوما على اتخاذ هذا القرار.

تفرست مريم في وجه المرأة كيف لم تطرق هذه الفكرة ذهنها.

ـ ولكنّني لا أعرف أحدا هنا يا خالة أنا مستعدة لفعل أي شيء سأخدم في أي مكان ولكنّني لا أعرف أحدا

أنا أعرف يا ابنتي فأنا أخدم بيوت الأحياء الراقيّة منذ سنوات والطّلبات متزايدة، تعالي معي سنلّف على بعض البيوت.

في طريق الخروج من المسجد توقّفت المرأة فجأة ونظرت إلى مريم.

ـ سيطلب أهل البيت أن أضمنك لأنّهم لا يعرفونك، أنا سأضمنك لكن إيّاك أن تتسببي في قطع رزقي ورزق أولادي بأيّ تصرف سيء.

ـ لا تخافي يا خالة والله لن أسيء إليك أبدا يكفي أنّ جميلك هذا سيطوق رقبتي ما حييت.

ـ اسمعي يا بنيتي عندما تدخلين بيتا من هذه البيوت فأنت لا تسمعين ولا ترين ولا تتكلمين، تجيبين على قدر السّؤال إذا وجّه

إليك وتقومين بما يطلب منك، تأخذين أجرتك وتنصرفين، ما يحدث داخل البيت تتركينه هناك

هزّت مريم رأسها منتبهة وكأنّها تتلقى الوصايا السّبعة، حملت آية في ذراعها وأمسكت بيدها هبة وتقدمت تتبع خطوات المرأة.

احتضنت مريم هبة وسعادة كبيرة تغمرها نجحت ابنتها في شهادة البكالوريا بمعدل جيّد جدّا.

و ستنتقل إلى الجامعة، سنة أخرى وتلحقها آية، فخر مريم وفرحها لا يضاهيه شيء في العالم.

في طريقها إلى البيت عاد شريط الذّكريات أمام عيني مريم خدمت في البيوت واتّفقت مع صاحبة البناية أن تدفع الإيجار شهريّا، أدخلت بنتيها للمدرسة واجتهدت في تحفيزهما، وأوصتهما دائما بالدّراسة وأنّ كلّ تعبها لا يكافئه إلّا نجاحهما في الدّراسة، رغم صغر سنّ هبة وآية إلّا أنّهما أدركتا مبكرا وضعيتهما وتضحيات والدتهما تعلمتا ألّا تطالبان إلّا ما هو ضروريّ وأن تأخذا ما تعطيه والدتهما بحبّ وامتنان، فهمتا أنّهما ليستا كباقي البنات، ليس لديهما في الدّنيا سوى أمّهما وخال يسأل من حين لآخر يدخل إلى البيت عشر دقائق على الأكثر ثمّ يرحل، كان عقل البنتان أكبر من سنّهما، و مع مرور السّنوات كانت

أحلام مريم تكبر مع رؤيتها لتميّز بنتيها في الدّراسة و تفوقهما، يذهب طموحها بها بعيدا يوم تخرّج هبة من كليّة الطّبّ وتحقيق حلمها بأن تصبح جراحة، و حلم آية بأن تصبح محاميّة، هبة الّتي كانت تتفوّق في المواد العلميّة تضع اليوم قدميها على أوّل درجة في سلّم تحقيق حلمها، على عكس آية الّتي كانت تعشق المواد الأدبيّة واللّغة العربيّة خاصّة، لم تبخل مريم على بنتيها بشيء حتّى الرّوايات الّتي كانت تلتهمها آية لم تبخل عليها بها كلّما استطاعت ميزانيتها ذلك لكنّ آية ولعشقها للقراءة وجدت عدّة محلات بسوق صغيرة تتعامل بتأجير الكتب، قدّمت كتابا لأوّل مرة مع عشرة دنانير مقابل اقتناء كتاب آخر ثمّ استمرت تستبدل الكتاب في كلّ مرّة مقابل عشرة دنانير كان المبلغ زهيدا لكنّه كان يستهلك كلّ مصروف آية الّتي لم تكن تستمتع بشيء أكثر من القراءة والمطالعة باللغتين العربيّة و الفرنسيّة.

في بداية الثّلاثين من عمرها أصبحت مريم امرأة كاملة الأنوثة رشيقة القدّ، خفيفة الحركة سواد عينيها وتلك اللّمعة في وسط بؤبئها كانت تلفت لها الأنظار، لكنّ مريم نسيت منذ زمن بعيد أنّها أنثى، كلّ ما تذكره اليوم وتعيش من أجله هو أنّها أمّ تقدّم روحها وحياتها وأنوثتها من أجل بنتيها، عندما تنظر إليهما تحسّ أنّها ملكت الدّنيا وتنسى عناءها وشقاءها.

**********

تقدّمت مريم إلى فندق جديد يطلب عاملات تنظيف وتمّ قبولها فيه، اليوم أصبحت قادرة على العمل بدوام كامل مع كبر سنّ بنيتها وقدرتهما على الاهتمام بنفسيهما أصبح لها مرتّب شهريّ ثابت وتستفيد وبنتيها من الضّمان الاجتماعيّ، يوما ما بعد سنوات طويلة ستستفيد من منحة التّقاعد، عندما تتزوّج البنتان وتنصرفان كلّ لحياتها لن تكون حملا عليهما، هي تعرف أنّ بنتيها لن تتخليا عنها، ولكن هذه الفكرة تريحها أكثر.

في عملها الجديد كانت تهتمّ بتنظيف الغرف كلّ صباح وكلّما غادر زبون غرفته، كان بعض الأشخاص الطّيبون يمنحون لها بعض النّقود عند مغادرتهم تضيفها على راتبها، لم يخلو عملها من المضايقات والتّحرشات من بعض الرّجال عديمي الأخلاق، لكنّها أصبحت امرأة قويّة تستطيع التّخلص منهم دون إثارة المشاكل، علّمها الزّمن الحنكة والصّبر حتّى لا تخسر وظيفتها. في وسط تلك النّظرات كانت تحسّ به يراقبها من بعيد ويتدخّل لحمايتها كلّما لزم الأمر بذكاء وأدب بصفته المشرف على

الموظفين، كانت نظراته تختلف عن تلك النّظرات المخيفة وكلّما اصطدمت عيناها بوجهه أزاحه عنها، لم تكن قادرة على فهم تصرفاته ولا نظراته ولا حتّى هذا الإحساس الذي يراودها كلّما رأته أو تذكّرته حتّى أنّ يوسف كان يزورها أحيانا في نومها فتستيقظ مذعورة من اقتحامه أحلامها.

داخل المصعد الكهربائيّ المتوقّف كانت مريم تحسّ بالاختناق، اكتشفت منذ زمن أنّ لديها رهاب الأماكن المغلقة لذلك لم تستقل المصعد منذ بداية عملها هنا، لكنّ اليوم ولأنّها كانت تحمل الكثير من معدّات التّنظيف وشراشف الأسِرّة، اضطرت بصعوبة بالغة أن تستقل المصعد وها هو يتعطّل لسوء حظّها، في وسط اختناقها سمعت صوت يوسف من الخارج يناديها.

ـ مريم هل أنت بخير... مريم أجيبيني هل تسمعينني؟؟؟

تسمعه لكنّها عاجزة عن الإجابة، الحياة تختنق بداخلها والهواء كأنّه يتسرّب بالكامل من تحت فتحة الباب. سمعته يرفع صوته من جديد...

ـ مريم أرجوك إذا كنت تسمعينني أجيبي فقط بنعم...

استجمعت قواها وصرخت بقدر ما سمح لها خوفها.

ـ أنا أختنق، أختنق.....

ما إن سمع صوتها المختنق الذي بالكاد وصله حتّى أصابه

الخوف فكّر الهنيهة ثمّ قرّر.

ـ حسنا ابتعدي عن الباب سأحاول كسره.

جاءه صوت من هناك....

ـ لا تستطيع فعل ذلك يا يوسف سيعاقبك صاحب الفندق.

ـ لا يهمني المرأة ستموت بالدّاخل، أحضر لي مطرقة أرجوك وجِدْ لي قضيبا حديديا...

سمعت مريم طرقات شديدة وقويّة رغم ضيق نفسها إلّا أنّها أدركت أن يوسف يحاول كسر الباب، نزلت منزلقة على الحائط خائرة القوى على الأرض، إنّها تختنق، جاءت صورة بنتيها أمام عينيها اللّتين غشيتهما الدّموع فكّرت في حسرة وألم أنّها لن تحضر تخرج هبة وآية من الجامعة، لن تحضر زفافهما مازالتا صغيرتين فلذتا كبدها لمن ستتركهما...

فتح الباب فجأة رغم عدم إدراكها لما يدور حولها إلّا أنّها كانت تسمع هذه الأصوات الكثيرة من حولها والّتي لا تفهمها

انكبّ يوسف على مريم يحاول إرجاعها إلى وعيها، كان مغشيا عليها...

ـ قارورة ماء بسرعة.

وضع بعض الماء على يده يحاول مسح وجهها به لعلّها تستفيق، رغم رعبه وخوفه عليها إلّا أنّه لم يغفل عن رجفة يده عندما

لامست وجهها وبشرتها النّاعمة، ضرب وجهها ضربات خفيفة بكفّ يده ثمّ قرب قارورة الماء من فمها وجعلها ترتشف قطرات منها، فتحت عينيها أخيرا.

أصرّ يوسف على إيصال مريم إلى بيتها رغم رفضها، كانت خائرة القوى و بالكاد تستطيع الوقوف على رجليها، طلبت منه التّوقّف بعيدا عن بيتها.

ـ أنا أسكن حيّا شعبيا كما ترى، رؤية الجيران عودتي مع رجل غريب داخل سيارته ستجلب لي الكلام، أرجوك توقّف هنا.

قبل أن يتوقّف استدار إليها وسألها.

ـ هل زوجك بالبيت في هذا الوقت؟؟

فاجأها سؤاله منذ متى نسيت مريم أنّها متزوّجة، منذ متى لم تذكر اسم زوجها أو تتحدّث عنه، لاحظ هو اضطرابها ثمّ سمعها تقول في اقتضاب:

ـ زوجي مسافر.

توقّفت السّيّارة أمسكت مريم مقبض الباب وهمت بالنّزول، استدارت إليه فجأة وقالت:

ـ شكرا لك لقد أنقذت حياتي اليوم، ثمّ نزلت.

بقي يراقب مشيتها الهادئة وهي تختفي عن أنظاره أحسّ بانقباض قلبه وهو يسمع صوتا بداخله يقول:

ـ لا، أظنّ أنّني أنقذت حياتي أنا اليوم.

فاجأته الجملة، أربكته وأخافته، هو يدرك اهتمامه بها منذ دخولها إلى العمل في الفندق، لكنّه اليوم يكتشف بخوف أنّه يحبّها، عندما كانت محتجزة داخل المصعد الكهربائيّ ظنّ قلبه سيتوقّف من الخوف عليها وعندما رآها ملقاة على الأرض هناك كادت الحياة تغادره، ضغط بإبهامه وسبابته على عينيه.

ـ ما الذي تفعله يوسف، المرأة متزوّجة، هل جننت أم فقدت عقلك؟؟

رفع رأسه ونظر في المرآة العاكسة ثمّ قال بصوت مسموع:

ـ أظنّ أنّي فقدت قلبي.

تسارعت نبضات قلبه بداخله، استجمع حواسه المتناثرة أدار مقود سيّارته وغادر المكان.

**********

عندما وصلت مريم في اليوم التّالي وجدت الجميع يرحب بها ويسألها عن حالها، بعض العاملات قصصن عليها كيف كسر يوسف باب المصعد وأنقذها، هو لم يكن هناك لم تره منذ

وصلت، عندما أنهت دوامها وهمت بالمغادرة رأته واقفا هناك يطالعها بعينين غريبتين، اقترب منها وحيّاها.

ـ كيف حالك اليوم؟

ـ الحمد لله، أنا بخير.

ارتبك الاثنان لا يدري أحدهما ما يقوله للآخر، حسمت هي الموقف استأذنت وانصرفت، بقي هو واقفا تطالعها عيناه وقلبه يريد اللّحاق بها، اقتلع نفسه من مكانه، أسرع إلى الحمام وأغلق الباب عليه، وضع كلتا يديه على الحوض منحنيا يتنفّس بصعوبة، ثمّ رفع رأسه يطالع انعكاس صورته على المرآة، لم يتعرّف على هذا الرّجل الذي يقابله هذا الرّجل المهزوز رجل ضعيف عاشق لامرأة متزوّجة ولا يستطيع اقتلاعها من قلبه، لم يكن يوما هكذا، لم يكن يوما رجلا ضعيفا ولم يكن من مبادئه أن يحبّ امرأة متزوّجة، رغم سنواته الّتي تناصف العقد الرّابع لم يشعر يوما بهذا الضّعف اتّجاه امرأة، كان رجلا جذّابا يستميل النّساء لكنّه لم يتخل يوما عن أخلاقه ومبادئه، ما سرّ هذه المرأة لماذا هي بالذّات من تأسر روحه ويخلط حضورها انتظام دقّات قلبه بتلك الهالة الّتي تحيط بها، رغم أنّها لم تفعل يوما شيئا لإثارة انتباهه لكنّه وجد نفسه رغما عنه يقع في حبّها وتشغل كلّ تفكيره بعينيها السّوداويتين الكبيرتين وخصلات شعرها الأسود النّاعمة الّتي

تنزلق أحيانا من تحت خمارها وسمرتها الخفيفة وتلك الغمّازة على خدّها الأيمن، لكنّه يعلم أنّه ليس شكلها الذي يأسره، شيء آخر لا يعرفه، أتراه ذلك الحزن السّاكن في عينيها أم تلك العزلة الّتي تحيط نفسها بها؟؟ لكنّها امرأة ممنوعة عليه، هي امرأة متزوّجة هذا حبّ ممنوع لذا يجب عليه أن ينساها، فتح الحنفية وبدأ يملأ كفيه بالماء ويضرب به وجهه لعلّه يستفيق، أخذ شهيقا ثمّ زفر طويلا فتح الباب وخرج وهو عازم على نسيان هذا الحبّ المحرّم عليه.

في الأيّام الّتي تلت كانت مريم تلتقي يوسف صدفة وكأنّه يتجنّبها لماذا؟ هي لم تعد تفهم شيئا ولكنّها كانت تقرأ في عينيه حزنا غريبا وأحيانا ضياعا مرعبا، ما الذي كان يشغله هكذا ويؤرقه، رغما عنها أصبح يشغل تفكيرها و تترقّب رؤيته، طيلة ساعات دوامها يكون حاضرا في فكرها، تتمنى لو كان باستطاعتها أن تسأله ما الذي يؤرقه، ما سبب هذه الهالات السّوداء الّتي ارتسمت تحت عينيه، لو تستطيع أن تساعده وتخفف عنه، ثمّ يأتيها هاجس آخر ينهرها عن تفكيرها هذا من هو بالنّسبة لها حتّى تسأله وتساعده، ما الذي يعطيها الحقّ في هذا التّفكير المنحرف، إنّه رجل غريب أعزب تشتهيه أغلب النّساء وهي أمّ لابنتين، هي

ليست امرأة من حقّها التّفكير في رجل، هي ليست سوى أمّ نذرت عمرها من أجل ابنتيها.

**********

دخلت آية إلى معهد الحقوق ووضعت أولى خطواتها على طريق تحقيق حلمها ستصبح محاميّة لامعة تدافع عن الضّعفاء والمظلومين، ستصنع لها اسما تهتزّ من وقعه المحاكم هكذا كانت تخبر والدتها دوما، لترفع مريم كفيها إلى السّماء وتدعو لها أن يحقق الله حلمها ويسدّد خطاها.

بينما كانت آية و هبة تدرسان في جانب الغرفة الوحيدة الّتي تشكل المنزل ومريم تحضر العشاء في الجانب الآخر سمع طرق على الباب، استغرب الثّلاثة هذا الطّرق، ولكن مريم سرعان ما توقعت أنّ إحدى جاراتها تحتاج أن تستعير شيئا ما، اتّجهت هبة إلى الباب وفتحته لتفاجأ بالرّجل الواقف أمامها، لم تعرفه فهي لم تره يوما.

ـ من هناك يا هبة؟

استدارت هبة إلى والدتها وهي تجيب:

ـ لا أعلم رجل لا أعرفه.

أسرعت مريم بالنّهوض من مكانها لكنّ الرّجل لم يمهلها وخطا إلى الدّاخل، تسمّرت هي هناك وهي ترى زوجها واقفا يحمل حقيبة كبيرة بيده.

ـ قاسم.

ـ نعم، قاسم.

استدار إلى هبة وأضاف....

ـ ألا تعرفين والدك؟؟

عقدت الدّهشة لسان هبة كيف لها أن تعرف والدا لم تره إلّا وهي رضيعة بينما تسمّرت آية مكانها.

مرّت عدّة أيّام على عودة قاسم تغيّر شكله، ابيضّ شعره وزاد وزنه وبدت عليه آثار الزّمن، أثناء عملها لم تستطع مريم إخراجه من عقلها لماذا عاد بعد كلّ هذا الوقت، أخبرها أنّه أحيل على التّقاعد وعاد إلى وطنه وبيته، الآن تذكّر أنّ له بيتا وعائلة بعد كلّ هذه السّنوات لم تعرف كيف تتصرّف معه، تقبّلت حضوره كأنّه من المسلّمات لكنّها تشعر بالحرج والبنتين متضايقتين، بيتها كلّه غرفة واحدة يقيم فيه الأربعة وهو في النّهاية شخص غريب لم تعرفه لا هي ولا ابنتيها، لكن ما عساها تفعل أكانت ستطرد والد ابنتيها. هو في النّهاية مازال زوجها حتّى لو كان غريبا

عنها.

لكن ما لم يخبرها به قاسم أنّه في غربته تزوّج أخرى وأنجب ثلاثة أولاد، لكن كلّ واحد يعيش حياته وحده غير آبه به وتركوه وحيدا لا يسأل عنه أحد وزوجته انفصلت عنه.

استدارت وهي في شرودها لتصطدم بجسم صلب اختل توازنها لكنها أحست بيدين تمسكانها رفعت رأسها لتجد نفسها في حضن يوسف تعلّقت نظراتهما، بلا وعي منها رفعت كفها ووضعتها على صدره لتتحاشى السّقوط فارتعد جسمها كلّه على وقع ضربات قلبه المنتفض داخله، استجمعت قواها المستسلمة بين ذراعيه وسحبت نفسها، تركها مغالبا رغبته في إبقائها هنا حيث يريد إسكانها في حضنه قريبة من قلبه، أكملت طريقها وتركته واقفا هناك يصارع رغبته في الرّكض إليها، في هزّها وتعنيفها، في معاقبتها عن هذا الذي تفعله به وهي لا تدري أو ربّما تدري، فهل بات عشقه فاضحا له، كيف لقلبه الخائن أن يتعلّق هكذا بحبّ امرأة هي ملك لرجل آخر، من علم قلبه الذي روضه منذ سنوات على طاعته، من علمه العصيان، من علّمه الثّورة على كلّ ما أدبه عليه، كيف لامرأة بهذه الوداعة وهذا الصّمت أن تلهب بداخله هذا البركان من اللّهب، كيف له أن يطفئ هذا اللّهب وهو يحاول مذ أدرك عشقها في قلبه دون جدوى.

تمالكت نفسها وواصلت سيرها تدعو الله ألا تخونها خطواتها وتسقط أمامه، جسدها كلّه يرتعش ودقّات قلبها تتسارع، وضعت يدها على خافقها كأنّها تحاول منعه من الخروج من مكانه، ما هذا الذي يحدث لها، لم يخالجها يوما شعور مثل هذا، ما الذي يفعله بها هذا الرّجل، كيف لعينيه الصّافيتين أن تتحولا إلى بحور عميقة تغرقها وهي لا تجيد السّباحة، كيف للمسته أن تحرق كلّ شبر في جسدها، بل كيف لها أن تحرق روحها، ما الذي فعلته بها سقطة بين ذراعيه، أم ترى السّقطة أيقظت ما يفعله بها منذ رأته أوّل مرّة تتخلل أصابعه شعره الأملس وهو يضحك ملء شدقيه، ما الذي يحدث لها؟ هذه الأحاسيس الّتي تخالجها كلّما رأته أو فكّرت به أحاسيس محرّمة يجب أن تقتلها في جحرها قبل أن تتمرد عليها.

زفرت بقوة كأنّها تحاول طرده من داخلها وهي تخاطب نفسها في صمت.

ـ تعقّلي يا مريم لست شابة صغيرة تتعرّف على خطيبها، ابنتاك على وشك الزّواج وأنت تفكرين برجل مثله تعقّلي يا مريم هو بالكاد يعرف اسمك.

**********

عندما عادت مريم إلى بيتها وجدت واقعها هناك مستلقٍ على السّرير يشاهد التّلفاز، لم تعد هبة وآية بعد من الجامعة، ما إن رآها قاسم حتّى انتفض من مكانه جالسا.

ـ فلتجلسي هنا.

استغربت مريم هذا الطّلب، نظرت إليه مستفهمة.

ـ ما الذي تريده؟؟

ـ ما الذي أريد أريد زوجتي، منذ عودتي والبنتان هنا لم ننفرد ببعضنا منذ عودتي، وأنا أريدك

نظرت إليه مريم متفرسة لا بد أنّ الرّجل قد جنّ.

ـ هل تدرك ما تقوله يا رجل؟

صرخ هو غاضبا...

ـ ما الذي أقوله ألست زوجك وأنا لا أطالب إلّا بحقوقي عليك؟

لم تستطع مريم منع ضحكة ساخرة وانفجرت بعدها في وجهه كقنبلة موقوتة كانت دقّاتها تنتظر ساعة الصّفر:

ـ حقوقك؟ وحقوقنا نحن، تركتني أنا والبنتان طيلة هذه السّنوات، لم تتذكّرنا يوما لا بفلس ولا بإتّصال ولا حتّى برسالة، لم تكلف

نفسك عناء السّؤال كيف عشنا؟ هل كنّا نأكل؟ هل كنّا نشبع؟ هل متنا جوعا؟ لم تسأل هل دخلت بنتاك المدرسة أم لا؟ واليوم تأتي للمطالبة بحقوقك.

صرخ غاضبا

ـ أنا زوجك ومن واجبك إرضاء رغباتي.

أحسّت بالغضب يصعد إلى رأسها مع كلّ هذا الضّغط الذي تعيشه لا تستطيع تحمل جنونه أكثر.

ـ اسمع يا رجل ليس لك أية حقوق، لم تكن يوما زوجي لتصبح اليوم كذلك، أنت تركتني يوم زواجنا، حتّى عندما كنت هنا لم تعاملني كزوجة لك ولم تشعرني بأنّك زوجي، لست سوى والد ابنتي وفقط.

أعمى كلامها على قلبه فانقض عليها يضربها بكلّ الوحشيّة الّتي في داخله، في هذه الأثناء فتح الباب ودخلت هبة لتصطدم بهذا المنظر الفظيع، لم تتمالك نفسها إلّا وهي ترتمي على والدها تحاول انتزاعه من فوق والدتها الّتي كانت تقاومه دون فائدة، استدار هو رافعا ذراعه في الهواء ضاربا بها وجه هبة الّتي اصطدمت بالجدار عند ذاك أحسّت مريم بغضب عارم يتلبسها انتفضت ودفعته ليسقط أرضا أخذت سكينا من بين الأواني، أشهرته في وجهه وهي تزأر كلبؤة في وجه وحش يريد افتراس

أشبالها.

ـ أقسم بالله لو وضعت يدك على إحدى ابنتي ثانيّة لأقتلنّك وأدخل فيك السّجن، هل تسمع، إلّا ابنتاي

أصيب قاسم بالدّهشة لم ير زوجته هكذا يوما، تلك الفتاة الوديعة الّتي تركها والمرأة الّتي وجدها لم تكن إحداهما تشبه هذه اللبؤة الشّرسة عندما سمعها تواصل.

احمل حقيبتك واخرج من بيتي، لديك أسبوع لتطلقني.

وقف الرّجل يستشيط غضبا:

ـ سآخذ منك البنتين وأحرق قلبك.

جاءه صوت آية الواقفة هناك منذ برهة مرعوبة تدعي الشّجاعة.

ـ لا يوجد أيّ قاض في العالم يمنحك طلبك، يبدو أنّك نسيت أننا راشدتين ولسنا قاصرتين ولا أظنّك تتصوّر أنّنا سنختارك على والدتي.

نظر إليها والدّهشة في عينيه، من هاته الفتاة أهذه ابنته حقّا؟

انتشله صوت مريم من ذهوله.

ـ لديك أسبوع لتطلقني.

أجاب وهو يحاول التّمسك بآخر أسلحته.

ـ لن أطلقك سأدعك معلّقة هكذا.

لسعه صوت آية مرّة أخرى.

ـ سترفع قضيّة خلع يبدو أنّك لم تسمع بهذا القانون ستخالعك دون موافقتك.

أجال قاسم بصره حول النّساء الثّلاثة، ستة أعين كانت تطالعه شزرا مستعدّة للانقضاض عليه في أيّة لحظة استدار وخرج من المنزل دون كلمة.

ركضت البنتان وارتميتا في حضن والدتهما الّتي ضمتهما بقوة إلى قلبها النّابض بسرعة لا متناهيّة.

**********

اتّجهت مريم إلى مكتب يوسف، لم تكن تريد مواجهته لكن لا بدّ لها من أخذ الإذن منه حتّى تتغيّب غدا

ـ ولماذا ذلك عسى المانع خيرا؟

ازدردت ريقها في اضطراب لا تعرف بما تجيب ثمّ قالت:

ـ لديّ جلسة في المحكمة.

انتفض واقفا

ـ أيّة جلسة هل لديك مشاكل مع أحد؟؟

رأت خوفا في عينيه، أشفقت عليه وراحت تطمئنه.

ـ إنّها جلسة محاولة صلح، سأنفصل عن زوجي.

أصابته الدّهشة، زادت خفقات قلبه لا يعرف إن كان يرقص فرحا أو يقفز خوفا سألها كأنّه يريد أن يتأكّد ممّا سمعته أذناه...

ـ ستطلقين؟؟

ـ نعم.

ـ حسنا إذن يمكنك أن تتغيّبي غدا.

استدارت وخرجت من المكتب وهي تحاول إخفاء رجفة يديها لا تفهم هذا الذي يفعله بها هذا الرّجل ولا تدرك سرّ ذبذبات جسدها الّتي تعلن الولاء له كأنّها تنتمي إليه.

انهار هو على الكرسي هل يعقل أنّ حلمه الذي لم يجرأ حتّى أن يحلم به سيتحقق، أيعقل أنّ هذه المرأة الّتي اقتحمت حواسه وسكنت قلبه ستصبح حرّة، لن يصبح حلمه بها ممنوعا، لن يصبح حبّه لها محرما.

أصبحت مريم امرأة حرّة، رغم أنّها عاشت جلّ سنوات زواجها بدون زوجها إلّا أنّها أدركت بعد طلاقها أنّ ارتباطها بذلك الرّجل كان يسجن روحها.

تغيّرت تصرفات يوسف تجاهها مذ علم أنّها ستنفصل عن زوجها كان يأتي إليها مبتسما ويسألها عن مسار القضيّة، عندما أعلمته

أنّ حكم الطّلاق قد صدر لم يستطع إخفاء فرحته وهو يبارك لها كطفل صغير يرقص فرحا صباح العيد، تساءلت هل كان يبدو كذلك فعلا أم أنّها تتخيّل لكن لماذا تهتم هي بذلك، بقدر ما كان الحلم يكبر داخل قلب يوسف بقدر ما كانت هي تحاول قتل هذه الأحاسيس بداخلها، طلاقها لا يعني شيئا، هي مازالت أمّا لفتاتين تحتاجانها، لا هي يمكنها أن ترتبط بيوسف ولا تتصوّر أنّ الفتاتين ستقبلان ذلك، بل لا تتصوّر حتّى أن تفاتحهما في الموضوع، ثمّ لماذا تفكّر في احتمال الارتباط به والرّجل لم يقل شيئا ولم يفعل شيئا، أين هي وأين يوسف ذلك الرّجل الذي يتغنى الموظفون بأخلاقه وشبابه وجاذبيته رئيسها. هي عاملة التّنظيف المطلّقة والدة فتاتين جامعيتين، هل جنّ ليفكّر فيها هي، عليها أن تخرجه من تفكيرها، وهل يجدي ذلك نفعا، يا إلهي عليها أن تقتلعه من قلبها أوّلا.

أغمضت عينيها تغالب دموعها وفجيعة قلبها الذي تعرّف أخيرا على الحبّ لكنّه مطالب باغتياله في مهده.

**********

مرّت أشهر على طلاقها بقدر ما حاول هو التّقرب منها بقدر ما كانت تتجنّبه وتختصر الكلمات معه، أيقن أنّه لم يبق له سوى مفاتحتها بالموضوع صراحة، طلب منها أن توافيه إلى مكتبه قبل مغادرتها.

كان ينتظر بشوق عارم يكبر حلمه الذي اقترب على التحقيق بداخله، يصارعه خوفه بأن ترفضه، مـــاذا لو رفضته أيمكن أن يتحمّل قلبه ذلك، بقي على حالة من المدّ والجزر، بين الشّـــوق والخوف، عندما سمع طرقا خفيفاعلى الباب.

ـ تفضل.

فتح الباب وأطلّت مريم، أطلّ حلمه معلنا شروق شمس حياته، أطلّ واقعه مستعمرا فضاء غرفة المكتب بوجهها الحزين وعينيها الدّاكنتين، رؤيتها تثير فيه مزيجا غريبا من الأحاسيس، شيء من الشّجن وكثير من الفرح بعض القلق وبحر من الحبّ، تمالك نفسه بصعوبة.

ـ أهلا مريم تفضلي بالجلوس.

تردّدت شيئا ما ثمّ تقدّمت وجلست قبالته.

ـ خير، أطلبت رؤيتي؟

ابتسم لها وهو يتأمّل وجهها الملائكي الذي سكن أيّامه وأحلامه.

ـ كيف حالك مريم؟

ـ بخير، والحمد لله.

لم ترد أن تسأله عن حاله هو، شوقها يكاد يقتلها لتفعل، لتسأل عن حزنه وشروده في الأيّام الأخيرة، لكنّها لا تريد إطالة الحديث، صمتت تخنق رغبتها داخلها تنتظر بنفاذ صبر أن يواصل حديثه لتحمل نفسها وترحل بعيدا عنه، بعيدا عن مكان مغلق عليهما تسكنه رائحته الّتي سكنت الرّوح، تجعلها مثل المنتشي بسكرة الخمر، سمعته يقطع صمتها.

ـ أردت أن أفاتحك في موضوع ما.

ـ ما هو؟

تردّد يبحث عن كلماته الّتي تناثرت منه كطفل صغير يقف ليتلو الدّرس الذي حفظه مرارا وتكرارا أمام معلمه لكنّ الرّهبة أضاعته منه، استجمع قوته تذكّر شوقه إليها فعادت له شجاعته.

ـ أريد أن أتزوّجك مريم، هل تقبلين الزّواج بي؟

ضربتها الصّدمة كموجة عاتيّة مفاجئة أفقدتها توازنها وأسقطت كلماتها، كيف له أن يخطبها هكذا دون مقدّمات لم يخرج من فمها إلّا كلمة واحدة بالكاد سمعها هو.

ـ لماذا؟

نظر إليها واتّسعت ابتسامته.

ـ لأنّي أحبّك وأريد بناء حياتي معك، أريد أن أسكن إليك لأنّك

تسكنيني مريم، أريد أن أحبّك في الحلال
يا إلهي ارتعدت فرائصها كلّها وكأنّه الإعصار يعصف بها لماذا يقول لها هذا الكلام أتراها تحلم، لا حتّى في أحلامها ما كان خيالها قادرا على اختلاق مثل هذا الكلام.
ـ لماذا أنا؟
سبقته ضحكته قبل كلماته.
ـ لا أعلم يا مريم الحبّ ليس فيه لماذا ولا متّى، أحببتك دون أن أعلم دون حتّى أن أريد ذلك، كنت امرأة متزوّجة محرّمة عليّ، قاومت حبّك الذي كان يجتاح كياني يستعمر كلّ شبر في روحي، خانني قلبي وأعلن راياته مستسلما، خانتني حواسي، بقيت وحدي أحاول المقاومة مستميتا كقائد تخلى عنه جنده، كنت عاجزا لأنّي أدركت أنّي أنا نفسي لم أعد أريد المقاومة، حتّى جاءتني البشرى يا مريم وعلمت أنّك تنفصلين عن زوجك ظننت أنّ حبّك سيدمرني مريم، لكنّ حبّك منحني الحياة.
نزلت عبراتها ترسم وديانا على وجنتيها فاجأها كلامه، هي الممنوعة من الحبّ، هي الممنوعة من الحلم، كيف لرجل مثله أن يحبّ امرأة مثلها كيف لعالمها أن يلتقي بعالمه، هي استسلمت منذ زمن لقدرها الذي اختارها أمّا سالبا منها صفة الأنثى، زلزلت كلماته روحها لكن صورة ابنتيها ارتسمت أمام عينيها سمعت

صوته يقول:

ـ لا تبكي يا مريم أرجوك لاتبكي، أنا أريد الزّواج منك لأمحو حزن عينيك، لأعلّمك كيف تعيشين الحياة وأنت تبتسمين، أريد أن أدخلك دنيا الفرح بين جنبات قلبي.

كانت تمسح دموعها الّتي لا تتوقّف بكلتا كميها تحاول أن تراه، ترى هذا الحبيب الذي يسكنها ترى هذا الرّجل المعجزة الذي كسر قيودها وأبواب سجنها وصرع سجانها ووصل إلى قلبها لكنّها لا تستطيع الفرار معه لأنّها أحبت سجنها فأصبحت سجان نفسها، استجمعت قوّتها نظرت إليه تكاد روحها تغادرها وهي تقول بألم يخنق قلبها ووجع يطبع صوتها:

ـ لا يمكنني ذلك لست امرأة تليق بك أنا نذرت نفسي منذ زمن لتربية ابنتاي ولا أستطيع الزّواج بك، كسره ردّها قطع الهواء عليه لكنّه لم يكن مستعدّا للاستسلام.

ـ ابنتاك جامعيتان يا مريم ليستا بحاجة إليك، لم تعودا صغيرتين وسنوات قليلة وتتزوّج كلّ منهما وأنا سأساعدك على الاهتمام بهما، سأحبّهما بقدر حبّي لك يا مريم.

خرج صوتها شاهقا متألّما:

ـ لن ترضى ابنتاي بذلك وأنا لن أجرأ حتّى على إثارة الموضوع

أمامهما.

ـ دعيني أنا أتكلم إليهما.

شهقت مجيبة:

ـ لا، أنت ستنسى هذا الموضوع، ستبحث لك عن شابة صغيرة تملأ بها قلبك وحياتك، تنجب لك أطفالا، دعك من مطلقة مثلي لها ابنتان على وشك الزّواج.

ـ مريم أنت لم تكملي خمس وثلاثين سنة، لم يكبرك إلّا الهمّ وأنا سأعيد لك الفرح يا مريم، أنا لا أريد شابة صغيرة ولو كنت أستطيع نسيانك لفعلت عندما كنت متزوّجة.

ـ دعك من هذا الأمر يا يوسف أنا لا يمكن أن أتزوّج مرّة ثانيّة.

حملت نفسها بصعوبة فتحت الباب وخرجت، وخرجت روحه معها ثمّ تبعها قلبه، لطالما كان قلبه وروحه خائنين انضما إلى جانبها هي.

**********

فتحت مريم الباب للطّارق الذي لم يكن إلّا شقيقها موسى، في حديثهما أخبرها أنّ يوسف الذي يعمل معها جاءه خاطبا إيّاها، وسألها عن رأيها في الموضوع، استغربت مريم أنّ شقيقها لم يرفض الموضوع مباشرة وأنّه يهتمّ بمعرفة رأيها، أعلمته أنّها لا

تريد الزّواج ولا تفكر به، هناك في الجانب الآخر من الغرفة كانت هبة وآية تسترقان السّمع، فوجئت الفتاتان بالموضوع لم تريا والدتهما إلّا كأمّ، لكنّهما تدركان أنّها امرأة وأن هناك من يطلبها و يرغب بها، بدا الأمر غريبا رفضته هبة برمّته فلا يمكن أن تتخيّل أنّ أمّها متزوجة من رجل غريب بينما أثار الأمر فضول آية .

عند مغادرة موسى اتّجهت آية إلى والدتها، جلست قربها وراحت تسألها باهتمام.

ـ هل تعرفين هذا الرّجل ماما؟

ـ أيّ رجل؟

ـ هذا الذي خطبك من خالي.

ـ نعم، إنّه يعمل معي.

ـ كم عمره؟

ـ ما أدراني أنا بعمره.

رغم أنّها كانت تعرف أنّه لم يكمل عقده الرّابع لكنّها لم ترد أن تبدو مهتمّة أمام ابنتها، هي بالكاد تحاول السّيطرة على أحاسيسها المتبعثرة منذ أن ذكر شقيقها اسمه.

ـ أقصد هل هو كبير جدّا يعني شيخ أم لا؟

ـ لا، ليس شيخا.

ابتسمت آية مبتهجة.

ـ يعني أنّه لا يكبرك كثيرا.

ـ لا.

ـ هل هو وسيم؟

ـ لم تسألين كلّ هذه الأسئلة؟

ـ لنفكر سويا إذا كنّا سنقبل به أو لا.

نظرت إليها والدتها متعجّبة مترقّبة...

ـ وهل يمكن أن تقبلي؟

رفعت آية عيناها إلى السّماء حالمة.

ـ لم لا؟ إذا كان رجلا جيّدا و يحبّك مثلما أجده في الرّوايات الّتي أقرأها فلم لا؟

ارتبك داخل مريم وهي تسمع كلام ابنتها لكنّ صوت هبة جاءها من هناك قاطعا جازما.

ـ هذه الرّوايات الّتي تقرئينها أتلفت عقلك، تريدين تزويج أمّك لرجل غريب لا نعرفه ندخله حياتنا ليفسدها علينا

أجابت آية.

ـ سنتعرف عليه، فلا يصبح غريبا، نضعه تحت الاختبار ونقرر إن كان جيّدا كفاية لنزوّجه ماما.

ـ قلت لك عالم الرّوايات جعلك مجنونة.

نامت مريم ليلتها نوما مرتبكا، إذن فيوسف لم يستسلم رغم رفضها، فذهب وخطبها من شقيقها، تصرّفه هذا دغدغ مشاعرها وجعل شحنة من الكهرباء تسري في جسدها، فاجأها حديث بنتيها خاصّة آية الّتي لا ترفض الأمر، ظنّت الأمر مستحيلا حتّى الآن، وشقيقها لا يمانع وآية كذلك، لم يبق سوى هبة، حاولت منع هذه الهواجس من فكرها لم تكن تريد التّأمّل في شيء لن يحدث أبدا، لم تنم إلّا في ساعة متأخّرة من اللّيل

عندما قابلت يوسف في الصّباح جاءها مسرعا يستفسر عمّا قالته لشقيقها أخبرته أنّ رأيها لم يتغير، كست وجهه هالة من الحزن كادت تعصف بقلبها المتعلّق بوجهه، أشفقت عليه فأخبرته بأنّ آية لا ترفض الموضوع، عادت إليه الرّوح، ربّما الأمر ليس منتهيا بعد، سألها مستميتا في الدّفاع عن أمله وحلمه:

ـ لماذا مازالت ترفض إذن؟

أشفقت عليه ارتبكت وهي تجيب دون تفكير:

ـ هبة غير موافقة.

ابتسم وهو يسألها.

ـ لو وافقت هبة هل سيتغيّر رأيك؟

سكتت ولم تجبه لا تريد أن تعطيه أملا كاذبا، تعرف هبة وأهمّ صفاتها "العناد".

نظر إلى وجهها في شوق يلهب فؤاده وقال:

ـ سأجعلها توافق.

ثمّ استدار وانصرف تاركا إيّاها في ذهولها.

كانت آية تجلس مع شقيقتها في كافتيريا لأنّها تريد الحديث معها بعيدا عن والدتها، تتذكّر بابتسامة كيف قصدها يوسف إلى الجامعة، شرح لها احترامه لوالدتها وأنّه يريد الزّواج منها على سنة الله ورسوله وكيف أنّه يتمنى أن يصبح جزءً من عائلة مريم المتكوّنة منها ومن بنتيها، فاجأته بسؤال صريح ومباشر:

ـ هل تحبّ والدتي؟

ارتبك في البداية ولم يعرف بما يجيب، كان الأمر حسّاسا وهو يتحدّث عن المرأة الّتي يحبّها مع ابنتها، لم يعرف إلى أيّ مدى يمكنها أن تتقبّل الأمر، لكنّ تصرفاتها وشقاوتها جعلته يفصح عن مشاعره ومع استجابتها بقي قرابة السّاعة وهو يتحدّث بلا كلل أو ملل عن حبّه لوالدتها وكيف أحبّها من بعيد حبّا عفيفا وعن رفض والدتها الارتباط به بسببهما هي وشقيقتها هبة، تحدّث عن رغبته في إدخال الفرح إلى حياة مريم ومساعدتها في الاهتمام بها

وبهبة.

بدا الأمر غريبا وهو يتحدّث عن حبّه لوالدتها هي، لم تدرك قبلا أنّ رجلا مثله ـ فقد وجدته وسيما وجذابا ـ يمكن أن يحبّ أمّها بهذا القدر من الحبّ الكبير، ليس لأنّ والدتها لا تستحق ذلك وليس لأنّ والدتها أقلّ منه جمالا بعينيها الّتي ورثتهما هي عنها ولكن لأنّها كانت دائما تراها أمّها فقط ولم ترها كامرأة، كأنثى في عيني رجل.

مع اندماجها في حديثه رأته فعلا كأحد أبطال الرّوايات الّتي تقرأها... يحارب من أجل الفوز بحبيبته، تراقصت ابتسامتها وهي تتخيّل شقيقتها تلعب دور "الشّريرة " في الرّواية فهي من تمنع لقاء الحبيبين.

ـ لماذا تبتسمين هكذا كالبلهاء قلت أنّ الأمر ضروريّ ويجب أن نتحدّث بعيدا عن ماما والآن تسكتين وتبتسمين كالحمقاء منذ جلسنا.

فكّرت آية أنّه لطالما اتّسمت هبة بلسانها الحاد، لم تكن لتسكت لها لولا أنّ استراتيجيّة الحرب القادمة تقتضي التّنازل في هذا.

ـ أردت أن أحدّثك في أمر يوسف.

ـ فوجئت هبة وسألتها.

ـ من يوسف هذا زميلك في الجامعة؟

لم تستطع آية منع ضحكتها وهي تفكّر (وتقول أنّني أنا البلهاء)

ـ يوسف الذي خطب والدتك.

عادت هبة بظهرها على الكرسي وهي تطالع شقيقتها.

ـ ما به هذا اليوسف؟ أمّك رفضته وانتهى الأمر.

ـ لا، لم ينتهي أمّك رفضته من أجلنا.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ الرّجل جيّد أخلاقه عالية ويحب ماما ومازال متمسّكا بها.

ارتسمت عقدة بين حاجبي هبة تخشاها آية عندما تراها، ذلك يعني أنّها غاضبة.

ـ من أين تعرفين الرّجل وتتحدّثين هكذا كأنّ الأمر عاديّ "يحب ماما" أتدركين أنّك تتحدّثين عن أمّك، ليست بطلة من رواياتك السّخيفة.

اعتدلت آية في جلستها وارتسم الحزم على وجهها.

ـ أوّلا رواياتي ليست سخيفة، ثانيّا لأنّي أعرف أنّي أتحدّث عن ماما جئت بك إلى هنا، ثمّ أنا أعلم أنّك تحبين زميلك في الجامعة وأنّكما تنويان الارتباط بمجرد تخرّجك وستكملين تخصّصك

وأنت زوجته.

فوجئت هبة بكلام شقيقتها.

ـ كيف تعرفين هذا؟

ـ لأنّني تحدثت معه، استجوبته عن نواياه وأجبرته على التّصريح بها، أكنت تظنين أنّني سأتركك تذوبين في رجل لا نعرف إن كان جادّا أو لا.

ـ فعلت هذا؟

ـ نعم.

ـ لكنّه لم يخبرني.

ـ هدّدته أنّه إذا أخبرك أخبر ماما عن علاقتكما.

ـ لم تفعلي هذا؟

ـ بلى، نعود إلى موضوعنا.

أكملت آية حديثها كأنّ الأمر بديهي تاركة أختها تتخبّط في دهشتها من جرأتها هذه، تعرف أنّ شقيقتها مجنونة لكن ليس إلى هذا الحدّ، وكيف لم يخبرها مراد سيكون حسابه عسيرا معها.

ـ أنت إذن ستتزوجين قريبا وأنا حتما لن يطول بي الأمر بعدك بما أنّني فتاة رائعة وجميلة ومحبوبة

رفعت بعض خصلات من شعرها تلعب بها وهي تتحدّث عن نفسها وتبتسم أمام عيني شقيقتها المذهولتين مكملة حديثها.

ـ سنترك ماما لوحدها.

تبدّلت نبرتها واختفت ابتسامتها.

ـ والدتي ضحّت بكلّ شيء من أجلنا، سنوات طويلة وهي تعارك الحياة من أجل توفير حياة طيبة لنا، حرمت نفسها من كلّ شيء، لا تأكل حتّى نشبع نحن، تضع اللّقمة في فمنا لتحسها هي في جوفها، لا تشتري لباسا حتّى يبلى الذي تملكه، تعمل كمنظفة منذ كانت مجرّد مراهقة لم تر من الحياة شيئا لنتخرّج أنا وأنت من الجامعة نسيت أنّها أنثى حتّى أنكرنا عليها اليوم أنّها كذلك، وأنّ من حقّها الحياة كامرأة سعيدة في ظلّ رجل يحبّها ويكرمها، لماذا لا نوافق وقد جاءها هذا الرّجل.

ـ لأنّها هي غير موافقة.

ـ هي موافقة.

ـ هي أخبرتك بذلك.

ـ لا ولكنّني أعلم أنّها موافقة لكنّها ترفض الأمر من أجلنا.

صمتت هبة تفكّر في الموضوع أخذتها شقيقتها على حين غرّة بكلّ ما ألقته على وجهها وهي لم تتحضّر لذلك هي تعرف أنّ أمّها ضحّت بكلّ شيء من أجلهما لكنّها في كلّ الأحوال لا يمكن أن تتقبّل زواج والدتها.

ـ أنا لن أوافق على هذا الزّواج وانتهى الموضوع.

ـ أنت تفكرين بأنانيّة، والدتك باعت عمرها من أجلك وأنت اليوم ترفضين الموافقة على فرصتها في الحياة من جديد.

كان يوسف جالسا بجانب زوجته يشبك أصابعه بأصابعها على يسارها تجلس هبة و خطيبها مراد، الكلّ بانتظار دور آية في تأدية يمين المحامي، مذ تزوّجها وهو لا يصدّق أنّه فاز بها أخيرا، لقد أقام الدّنيا وأقعدها، رسم الخطط، جال وصال وكانت آية حليفه الأكبر في معركته، أدخل مراد خطيب هبة في الخطّة، قاوم رفض والدته هو، أعلن لها عزوفه عن الزّواج وأنّه لن يعصيها ولن يتزوّج بمريم دون موافقتها، وأنّه سيموت أعزبا دون أن ترى أبناءه، دخل في حالة من الهمّ والغمّ، نحل جسده وفقد ابتسامته حتّى استسلمت والدته ووضعت هبة أخيرا أسلحتها بعد خطبتها من مراد وبعد الضّغط المتكرّر الذي لاقته من خطيبها ومن آية.

بعد زواجهما سجلت مريم في دروس محو الأميّة بمساعدة زوجها وابنتيها كانت تحقق نجاحا باهرا وتقدّما سريعا، ما كان لامرأة في قوّة مريم أن تترك الجهل يهزمها.

تستعيد مريم في انتظار دور آية، شريط حياتها من طفلة متزوّجة إلى أمّ نذرت حياتها لبنتيها، تتذكّر يوم تركها زوجها الأوّل لا

تعرف شيئا عن الحياة وسافر، تمرّ عليها لحظات عملها في البيوت كمنظفة، تحمّلها لمزاج ربّات البيوت دون أن يكون لها حقّ الردّ أو الشّكوى، فرحتها بأوّل أجرة أخذتها، لحظاتها الصّعبة عندما كانت تحاول جعل المال يكفي للأكل والعلاج ودراسة البنتين، عملها في الفندق، قطعت المشوار وحدها، وحدها أوصلت بنتيها إلى هنا، من كان يظنّ أنّ تلك الفتاة السّاذجة ذات الأربعة عشر ربيعا ستتحدى العالم وتتحدى ظروفها وتقف ببنتيها هنا "جراحة ومحاميّة" فخورة ببنتيها اللّتين لم تخيّبا جهودها.

تحسّ بيد زوجها تحطّ في سلام على بطنها الّتي تحمل ثمرة حبّهما، تضع يدها على يده تتعانق نظراتهما في شوق مازال يذهل كليهما، لم يخمد ذلك الحبّ الذي جمعهما بل يتزايد كلّ يوم أكثر، يشتاقان لنهاية الجلسة وعودتهما إلى المنزل أين تقيم آية وهبة معهما كلّ في غرفتها.

يتخيّل هو عادة زوجته الّتي أصبح يعشقها عندما يأتي اللّيل ويكون جالسا على مكتبه يتأخّر متعمدا عليها فيحسّ بنظراتها تلسعه يستدير إليها مبتسما فتسأله:

ـ ألازلت تحبني؟

ليجيبها بقلب يرتعش لهفة عليها:

ـ الآن أكثر من حين سألت وبعد دقيقة أكثر بكثير من الآن.

تركض إليه كطفلة صغيرة تدفن وجهها في حضنه حيث مكانها الطّبيعي يضع قبلة على شعرها يرفع رأسها إليه ويسألها:

ـ وأنت؟

تتورّد وجنتاها وتبتسم له حتّى تغرز غمازتها خدّها الأيمن، تتبعثر الأحرف على شفتيها وتختلط عليها نبضات قلبها تتأخّر نبضة عن نبضة وتقفز واحدة مكان الأخرى مازالت تخجل من التّعبير عن مشاعرها رغم الوقت الذي مرّ على زواجهما، مازال هذا الحياء على وجهها يذهله ويغريه، يزرع نظراته في عينيها بكلّ الشّوق الذي يغالبه ليتحكّم في أحاسيسه.

ـ أريد أن أسمعها.

ـ تقرب ثغرها من أذنه لتهرب من عينيه اللّتين تغرقانها وتقول بصوت مبحوح متهدّج.

ـ أحبك وأعشقك.

يعيد سواد ناظريها إلى وجهة عينيه، ينحني عليها ليذوب فيها ويذيبها في بحر من الشّوق، وتتلّون أمواجه في كلّ مرّة بألوان جديدة ليغرقا في عالم لم يشكا قبلا أنّه موجود على أرض الواقع لتوقن هي أن نبض أنوثتها لم يمت.

تمت في جوان2016

# مازال في الحبّ بـقـيّة

دخلت سارة البيت وهي تحتضن حقيبتها و كأنها تخشى ضياعها في لحظة غفلة منها، على غير عادته جاءها شقيقها الأكبر كريم اليوم إلى الجامعة ليقلها للمنزل لتعرف في السّيّارة أسبابه بعد أن سلمها تلك الرّسالة الّتي تخفيها في حقيبتها وتجعلها تائهة متلهفة لقراءتها وخائفة في نفس الوقت، قبلت والدتها متلهفة ثمّ أسرعت إلى غرفتها يدفعها شعور غريب عزّته هي إلى فضولها ولم تشأ إطلاق تسمية أخرى عليه، رغم أنّ أفكارها كانت تموج بها في متاهات كثيرة تغرق بها في عمق ماضٍ قريب لتعود وتلقي بها على حافة الحاضر، ما إن استقرت على سريرها حتّى أخرجتها تفتحها بيد مرتجفة لتقرأ ما فيها

" سارة

لا أجد اليوم من حقّي أن أناديك بغير اسمك لذا اعذري رجفة يدي وأنا أكتبه.

قد مرّ أكثر من عامين لذا سمحت لنفسي المتلهفة أخيرا أن تخطّ لك هذه الكلمات.

لم أعرف كيف أبدأ هذه الرّسالة الّتي أحملها ثقل وجعي وهواني، لذا اخترت أن أبدأ من البداية لعلّ تذكيري لكِ بأيّامنا يشفع لي عندك ويلين قلبك.

أتذكرين سارة عندما التقيتك أوّل مرّة طفلة في الحادي عشر من العمر تركضين هاربة من شقيقك الذي كان يفوقك طولا وحجما وجدتني أنا صديق أخيك الأكبر كريم، اختبأت ورائي تطلبين حمايتي، لا أستطيع أن أفسّر ذلك الإحساس الذي انتابني يومها برغبتي في حمايتك من العالم فأمسكت شقيقك من كتفه أؤنبه وأمنعه عنك لكنك كقطّة شرسة خرجت في وجهي بصوتك الملائكي تنهرينني وتؤنبينني. أنا عن معاملة أخيك بتلك الطّريقة أثرتِ ساعتها غضبي أنا الذي ما فعلت ما فعلته إلّا لحمايتك فكنت تردين بانقلابك عليّ وتوبيخي أنت الطّفلة الصّغيرة، أردت ساعتها أن أحملك وأضربك عقابا على توريطي في أمر ليس لي علاقة به لكن حضور صديقي كريم في تلك اللّحظة منعني من ذلك احتراما له.

من يومها وأنا أترقّب في سرّ وكتمان خطواتك الثّائرة وأنت تكبرين عنيدة تعاند حتّى نفسها، طفلة بين ثلاثة شباب كلّ يريد ممارسة الوصاية عليها في غيّاب والدك المتوفي بينما كنت أنت تتمرّدين على كلّ ذلك معلنة منذ البداية شخصيتك المتمرّدة الّتي تأبى أن يحكمها أيّ شخص، كنت أنا متفرجا شغوفا بهذه المسرحيّة معجبا ببطلتها الصّغيرة الّتي كانت تكبر لتتحوّل لامرأة بعينين عسليتين ناريتين يشتعل بداخلهما الحماس يعكس روحها المتمرّدة.

وجدتني من غير إدراك أقع في حبّ تلك الصّغيرة ذات الخمسة عشر ربيعا، عرفت ذلك عندما رأيتك يوما تكلمين فتى مراهقا يكبرك بسنة أو سنتين فاندفعت أنهره و أوبخك على فعلتك، وبينما نار الغيرة تحرقني كنت أنت تبتسمين بلؤم وتسألينني عن سبب غضبي غير المفسر، بعد انصرافك سألت نفسي ما الذي يغضبني هكذا وعرفت يومها الإجابة، إنّه ليس الغضب، إنّها الغيرة.

منعت نفسي عنك وأنا أعاتبها وأذكرها بأنّك شقيقة صديقي وبأنّك أصغر من مشاعري المحرقة لكن لا حياة لمن تنادي كنت قد تورّطت فيك وانقضى الأمر.

أردت بعدها أن أعقد هدنة معك أن أصبح صديقك ولكنّك كنت تنظرين إليّ بابتسامة ماكرة مستفزة تقول لي (أقنع نفسك بذلك) تتركينني بعدها وتنصرفين غير عابئة ببركان الغضب الذي توقظه بداخلي كلماتك غير المنطوقة وإحساسي بالهزيمة أمام فتاة لا تتجاوز الخامسة عشر تقرأني ككتاب مفتوح بين يديها.

عندما كنت أجيء إلى بيتكم تقابلني والدتك بترحاب كبير يسعدني، لكن طلّتك تذهب سعادتي وعقلي معها وأنا أؤنب نفسي عن هذه المشاعر الّتي أعتبرها خيانة لصديق فتح لي بيته وامرأة عاملتني كابن لها، رغم أنّه يشهد الله أنّي لم أسئ يوما التّصرف معك إلّا أنّها مشاعري التي كانت تفضحني أمام ذكائك المتّقد.

أتذكّر ذلك اليوم كأنّه مرّ من ساعة أو أقلّ كان عيد ميلادك الثّامن عشر وإخوتك يحتفلون بك، لم يكن من المفروض أن أكون هناك لأنّ شقيقك أخبرني أنّه عيد مولدك، لكنّني كشاب أحمق يخونه ذكاؤه ويسيره شوقه قدّمت إلى بيتكم مفسدا حميميّة عيد الميلاد ذاك، أطلب من أخيك الخروج ليخبرني بعدم استطاعته ترك عيد ميلاد شقيقته الوحيدة، عندما رأت والدتك إحراجي دعتني للدّخول لشرب فنجان قهوة جلست مع صديقي وحدنا في غرفة بينما كان

هو يستثقل حضوري وعدم مغادرتي، كنت أنا ألتقط همساتك وضحكاتك غير مدرك لدرجة الجنون الّتي أوصلتِني إليها.

نعم، لقد عشقتك صغيرتي دون إرادة منّي كنت كمن يساق إلى حتفه دون حساب أو محاكمة، دون أن يعرف حتّى ذنبه الذي يعاقب من أجله والمشكلة أنّني كنت سعيدا بذلك منتشيا بهذا الحبّ لكن قلقا من مغبة هذه المشاعر الّتي تقودني إليك وأنت في غفلة عنّي تعيشين براءة عمرك أو هكذا كنت أعتقد.

عندما خرجت يومها أخيرا من بيتكم اتّجهت إلى بائع الحلي الفضّية الذي في شارعكم واقتنيت لك سلسلة من فضّة معلّق فيها فراشة صغيرة أحسست يومها أنّها تناقض تمردك لكنّها تحمل إحساسك بالحرّيّة ورغبتك في الطّيران بجناحي فراشة تمنيت يومها أن أكون أنا جناحيك لأنّي خفت وأنا أتطلع إليها أن تحلقي يوما مبتعدة عن سمائي فتكسري سحبي المحملة بغيث حبّك، لتمطر دموعا حزينة على فراقك عدت إلى بيتكم طرقت الباب وطلبت الحديث مع والدتك منحتها الهديّة المغلّفة في علبة صغيرة وتحجّجت بأنّه من الأدب أن أشتري لصاحبة عيد الميلاد هديّة صغيرة لأنّي دعوت نفسي لحفلها وأكلت من كعكتها، تقبلت

والدتك الهديّة بعد أن عرفت أنّها من الفضّة وليست شيئا غالي الثّمن وشكرتني.

في الأيّام الّتي تلت كانت عيناي تسترقان النّظر إلى رقبتك تبحثان عن السّلسلة أو أيّ أثر لها كنت أبحث عن إشارة لقبولك الهديّة لكن بدون جدوى.

حتّى جاء ذلك اليوم الذي خرجت تغادرين البيت إلى الجامعة تمسكين الفراشة الّتي استدارت إلى ظهرك ترجعينها إلى الأمام، رفعت عينيك لتصطدم بنظرتي المنتشيّة وابتسامة نصر ترتسم على محياي، رفعت حاجبك الأيمن في نظرة تحدّ وأمسكت وسط الطّوق في قبضة يدك تهمين بقطعه لكن نظرة عيني المتوسّلة أوقفتك، نظرت إليّ نظرة غريبة مبهمة تركت يدك الطّوق وخرجت بينما سقطت أنا على الكرسي أحاول استعادة أنفاسي الهاربة، ساعتها أدركت أنّ حالتي أصبحت مستعصيّة وأنّي قد دخلت في مرحلة الخطر. عرفت أنّ حبّك سيحييني أو سيقتلني وليس لي خيار وسط بين الاثنين..... "

توقّفت سارة عن القراءة وهي تسترجع هذه الذّكريات، بابتسامة جريحة تذكّرت كيف أحسّت بنظراته الّتي كانت تلاحقها وتذكّرت

كيف كان ينمو حبّه بداخلها وهي مجرّد طفلة بينما لا يفعل هو شيئا، بصغر سنّها كانت تمقت صمته ولا تفهمه، بينما هو كان يناضل مشاعره حتّى لا يؤذي براءتها وصغر سنّها وهو يكبرها بتسع سنوات.

عادت عيناها تتابع القراءة.

" .... أتذكرين يا سارة ما مرّ بعد تلك الحادثة، كنت كلّما التقيتني في ساحة بيتكم الذي أصبحت أقيم فيه أكثر من بيتنا، نظرت إليّ رافعة حاجبك الأيمن متذمّرة في صمت من وجودي وأرى نظرات والدتك تنهرك عن ذلك وأنت لا تبالين حتّى سكنني الرّعب من رفعة حاجبك وأصبحت تزوروني تلك الحركة في كوابيسي، وأنا أجزم أنّك تمقتينني وتكرهين وجودي، أفكر في حلّ لتلك المعضلة دون نتيجة حتّى جاء وقت سفري للخارج لدراسة تربصيّة في إطار عملي، لم يكن من حديث في جلساتي مع شقيقك ووالدتك إلّا عن هذه السّفرة الّتي ستدعم وظيفتي كتقني في مجال استخراج الغاز والبترول، وقتها تغيّرت نظرتك واختفت رفعة حاجبك كنت تنظرين إليّ نظرة مختلفة غريبة أحسّها أحيانا نظرة غاضبة وأحيانا أخرى نظرة متوسّلة، تارة

نظرة حزينة  أخرى متألّمة وما عدت أفهم ما الذي يحدث ولا عدت أعرف ماذا أفعل.

أتذكّر يا سارة عندما استرقتِ ذات يوم لحظة من الزّمن وتقدّمت نحوي في غفلة من والدتك وشقيقك تضعين السّلسلة الفضيّة الّتي أهديتك إيّاها في كفّي وأنت تقولين (لم تربط النّاس إذا كنت تنوي الرّحيل؟) تركتني أنظر إلى كفّي أحاول كأحمق فهم مغزى كلامك وتصرّفك هذا، استأذنت بعدها وخرجت من بيتكم وقضيت ليلتي أتقلّب في جحيم كلماتك، ماذا تعنين بتلك الكلمات؟ هل كنت تنتظرينني حتّى وأنا لم أقل لك يوما كلمة؟، أكانت مخيّلتي الّتي اختلقت تلك الكلمات، أكان جنوني من صوّر لي تلك اللّحظة، لكن كفّي الّتي كانت مازالت تحتضن السّلسلة كانت تؤكد لي أنّ ما حدث لم يكن من نسج خيالي ولا من جنون عشقي، قفزت واقفا أسأل نفسي (ماذا حدث لك يا صهيب لماذا تتخبّط في جنونك منذ سنوات دون أن تتّخذ خطوة إلى الأمام، لماذا تعيش في هذا الضّياع؟ أقطع الشّكّ باليقين وأعرف أين تضع قدماك لتعرف كيف تكمل حياتك) أتيتك في اليوم الموالي مهرولا أنتظرك أمام باب جامعتك ما إن رأتني عيناك حتّى أشرقت بهجة لم تدم سوى ثوانٍ معدودة لتنطفئ بعدها وتزيد ترددي ..... "

عادت سارة بذاكرتها إلى ذلك اللّقاء عندما رأته واقفا هناك بينما تراه العيون بطوله الفارع، كانت تراه هي بقلبها الحزين الذي لا يفهم صمته ورحيله، أكان إحساسها بحبّه وهما من نسج خيالها، أصوّر لها عشقها وهج نظراته المحرقة وغيرته المفرطة، أكانت السّلسلة مجرّد هديّة بريئة فسرتها هي كوعد حبّ وطلب انتظار أكانت كلّ تلك السّنوات الّتي قضتها في ترقبه والحلم به مجرّد سنوات ضائعة في وهم سراب.

تذكّرت خفقات قلبها وهو يقترب منها لا يوحي وجهه بشيء.

ـ مساء الخير سارة.

ـ مساء النّور.

ـ هل لي بالحديث معك قليلا.

تردّدت يومها ولم تعرف بما تجيب، كلماته ستمنحها الحياة أو تأخذها منها لكنّها حسمت أمرها يجب أن تسمعه

جلسا يومها في كافتيريا قريبة من الجامعة كلّ ينظر للآخر متردّدا مترقّبا حتّى بدأ هو بالحديث.

ـ لماذا رددت لي الهديّة؟ ألّا تعلمين أنّ الهديّة لا تردّ.

رفعت سارة حاجبها الأيمن غاضبة، ليس هذا ما كانت تنتظره.

ـ أهذا ما جئت تحدّثني به مكلّفا نفسك عناء الطّريق.

ابتسم مخفيا ارتباكه من رفعة حاجبها الّتي سكنت هواجسه وهو يسأل نفسه: لماذا هو الرّجل القوي الذي لا يهزّه شيء في الحياة تهزّه رفعة حاجب من هذه الصّغيرة الّتي تسكن دواخله في أبعد مكان يمكن أن يصل إليه إحساس، لماذا يشعر أمام حبّها بهذا الضعف وهذا الخوف من أن ترفضه فينهار حلم سكنه سنوات طويلة وهو يخفيه ينتظر نضوجها واستعداده للارتباط بها، آن لجحيمه أن ينطفئ أو يزيد اشتعالا حتّى يتحوّل إلى رماد.

ـ سارة أنت تعرفين علاقتي بشقيقك واحترامي لوالدتك هذا ما جعلني أسكت طيلة هذه السّنوات لأنّك كنت صغيرة وصدقيني ما كنت أقدمت اليوم على هذه الخطوة لولا صدق مشاعري ونيتي الصّادقة وتأكدي أنّه مهما كان ردّك ستبقين دائما تلك الصّغيرة العزيزة على قلبي شقيقة أقرب أصدقائي.

انفجرت سارة غير قادرة على الاحتمال أكثر.

ـ لست صغيرة أنا أبلغ التّاسع عشر من العمر طالبة جامعيّة لكنّك مازلت تراني صاحبة الإحدى عشرة سنة. أنا امرأة يا صهيب

أملك قلبا بمشاعر أنثى جاهزة للحبّ مستعدة للألم إن اقتضى الأمر.

جاءها صوته كنغمة هاربة من أغنية لطالما عشقتها.

ـ ما عاش من آلمك يا سارة وأنا على قيد الحياة لكنت قتلته قبل أن يفعل.

أسدلت سارة أهدابها غير قادرة على الكتمان أكثر.

ـ لكنّك تؤلمني يا صهيب أنت من تؤلمني.

أغمض عينيه يخفي إحساسه بوخز كلماتها الّتي توجعه ثمّ فتحهما ينظر مباشرة إلى عينيها.

ـ لأنّي أعشقك يا سارة وأخاف عليك.

اتّسعت عيناها دهشة وهي تسمعه يواصل.

ـ عشقتك يا صغيرتي وأنت في عمر طفلة، أرعبني شعوري بك وأجبرني على تعلم الصّبر، هل تعرفين مدى قسوة ذلك على شاب بدأ يكتشف رجولته ليجدها مقترنة بحب حارق لا يقوى على البوح به ولا على كتمانه أتدركين قسوة ذلك علي وأنا أرى

كل امرأة بعدك رجل في صورة أنثى وأنت الطّفلة الصّغيرة أنثى اختصرتُ فيها كلّ مشاعري، أتتصوّرين حالتي وأنت تسكنين كلّ حواسي لكنّني مضطر لخنقها في صمت يدوم منذ سنوات، أيمكنك أن تتوقّعي حالتي وأنا أعيشك متفرّجا عليك من بعيد أحترق بحبّك في صمت وترقّب قاتلين.

تلألأت الدّموع في عيني سارة تحاول منعها من السّقوط لكنها خانتها وانسابت على خدها التقطت المنديل تمسحها بينما فاجأتها كلمته:

- حبيبتي...

ما إن سمعت هذه الكلمة حتّى خانتها شهقاتها ووضعت يدها على فمها تحاول كتمانها.

سكت مرتعبا غير قادر على تفسير هذه الدّموع لكنّها رفعت إليه عينان غارقتان في بركتي دموع وهي تقول في خفوت:

- هذه الكلمة سكنت أحلامي لسنوات طويلة وأنا أتخيّلها بصوتك تقولها لي، و قد قطعت الأمل في ذلك، سماعها اليوم منك هو حلم يتحقّق أقرب بالّنسبة لي من المعجزة.

ابتسم ابتسامة راحة عريضة وهو يطلق زفيرا طويلا.

ـ وأخيرا آن لهذا القلب أن يعرف الرّاحة.

ـ كيف وأنت مسافر؟

ـ لن يدوم السّفر إلّا تسعة أشهر سأخطبك قبلها ونعقد قراننا، ثمّ نقيم عرسنا بمجرّد عودتي لا أظنّ أنّ كريم ولا أمّك ولا حتّى شقيقيك سيرفضون ارتباطي بك.

ـ فليتجرّأ أحدهم وليرفض.

انفجر صهيب ضاحكا وهو يعرف عناد صغيرته، اقترب منها وهو يقول في صوت كاد يذيبها:

ـ ألن أسمعها منك؟

احتقن وجهها خجلا وهي تقول بعينين لا تتجرّآن على النّظر إليه.

ـ ما هي؟

ـ تلك الكلمة.

أحسّت سارة بأنّها تكاد تختنق خجلا وما كانت تلك من عاداتها أبدا، أخذت ورقة من حقيبتها وكتبت عليها بخطّ عريض "أحبك" تحت نظراته المبتهجة، سلّمته الورقة الّتي قبّلها وهو يقول لكنّني أريد أن أسمعها.

ابتسمت ابتسامة مرتبكة ونظراتها تتوارى منه خجلا وهي تقول:

ـ دعني أفيق من صدمتي وسأقولها لك.

ـ حسنا لكنّني مسافر بعد ثلاثة أسابيع.

أدخل يده في جيبه ليخرج كفا مقبوضة فتحها في كفها وهو يقول:

ـ لا أريدك أن تنزعيها مرّة أخرى.

ضمت سلسلته الحبيبة تقبلها وهي تقول:

ـ لم يوجعني في حياتي شيء أكثر من تنازلي لك عنها.

ـ لم يؤلمني شيء في حياتي أكثر من رؤيتك تتنازلين عنها وقد كانت طوق أماني عندك.

عادت سارة بعينيها إلى رسالته تكمل قراءتها بعينين دامعتين.

" ..... كان اعترافك لي بحبك بدموع وكلمة يتيمة مكتوبة على ورقة أجمل هديّة منحني إيّاها القدر، لم أسمعها منك يومها ولكنّك قلتها لي بعدها يوم عقد قراننا وأنا ألبسك الخاتم الذي طوّق أصبعك ليربطك بي، عندما وضعت قبلة على خدّك سمعتها قريبة من أذني تهمس بها شفتاك، ارتجفتُ ساعتها نظرت إلى عينيك معاتبا تلك كانت خيانة، كنت أريد رؤية وجهك وأنت تقولينها لي أوّل مرّة لكنّ ابتسامتك الخجولة جعلتني ابتسم سعيدا بها قرأتها أوّل مرّة وسمعتها ثاني مرّة دون أن أراها، في المرّة الثّالثة كان ذلك قبل سفري، أتتذكّرين احتضنتُ بكفيا وجهك في المطار وأنا أقول لك (أريد أن أسمعها وأراها) أتذكّر سحر تلك اللّحظة عندما عانقت نظراتك عيناي وأنت تقولين (أحبك كما لا يمكن لامرأة في العالم أن يستوعب قلبها حجم هذا الحبّ الكبير لك) احتضنتك يومها غير آبه بوجود شقيقك على مقربة منّا وغير قادر على منع نفسي، رغبت يومها لو أستطيع إلغاء السّفر لو أستطيع أن أبقى معك، أن أتزوّجك في الحين والتو، أن يتوقّف الزّمن بي عند هذا الحضن فأقضي حياتي أعيش تلك اللّحظة فقط وأنت بين يدي.

سافرت وباعدت بيننا المسافات لكنّ البعد زاد في قربنا وكِبر مشاعرنا، كنّا نتحدّث على الهاتف كلّ ليلة تدوم محادثاتنا ساعات

طويلة أبثّك حبّي وشوقي لك وتعترفين لي بحبّك وحسابك الأيّام الّتي تعاندنا رافضة المرور بسرعة.

و عدتُ حبيبتي... اعذري منّي الكلمة الّتي لم أستطع منعها، تذكّر اللّحظة أفقدني السّيطرة على ما تخطّه يدي..."

رفعت سارة يدها تمسح دموعها وهي تستعيد وقع الكلمة على حواسها الّتي أعلنت حالة الاستنفار ترقّبا لما سيكون، مرّ أكثر من سنتين على رحيل هذه الكلمة وخروجها من حياتها.

تذكرت ليلة عرسهما كيف راقصها على وقع نغمات أغنية هادئة وعيناه لا تغادران عينيها، كيف حملها بعدها ليدور بها وهي تلف ذراعيها على عنقه تتشبث به كأنّها تتشبّث بأحلامها الّتي تحققت خوفا من أن تغادرها تذكّرت كيف اختطفها مسرعا بها وهو يمسكها من خصرها بذراعه، يكاد يرفعها عن الأرض حتّى لا تسقط بحذائها ذو الكعب العالي وكيف هرب معها في السّيّارة تاركا الأهل والأصدقاء ينظرون متعجبين من جرأته. تذكّرت دخولهما منزلهما وهو يحملها تطوّق ذراعيه خصرها واقفة بمقدمة قدميها على قدميه، تأسرها عينيه يتقدّم بها لتنصهر خطواتها في خطواته فيصبحان شخصا واحدا بطريق واحد، كم

أحبّت منه هذه الحركة وكم عشقت ما حدث بعدها، لم يخيب أملها أحبّها بقوة رجل ورقة عاشق، بعنفوان الرّغبة وبراءة الحبّ، بكت بين يديه وهي تكتشف معنى أن تكون أنثى يعشقها رجل بكلّ عنفوانه وكلّ مشاعره الّتي انتظرتها عمرا لتستسلم هذه المشاعر كلّها على حضنها وتبثها حبّه الذي كتمه لسنوات طويلة.

لم يخيب أملها بعد ذلك كان رجلا اختصر عالمه في عمله وحبّها، تتذكّر معاملته لها كيف كان يدلّلها، يحبّها يكرمها، يحفظ كرامتها، كانت كملكة في مملكته، هو توّجها على عرشها وأعطاها مفاتيح قلبه ذلك القلب الذي كان منفذا تدخل منه لتسكن عمره، عقله وحياته.

عادت إلى رسالته وغصّة تكاد تخنقها حزنا على جنّة دخلتها يوما وخرجتها جريحة مطرودة منها مقتولة الرّوح.

" ..... تزوّجنا وأصبحت زوجتي كيف أصف لك إحساسي وقد ملكت بين يدي الدّنيا، كيف أعبر عن عمر قصير عشته معك، أغناني عن أعمار كان يمكن أن أعيشها بدونك أو مع غيرك، كيف أستطيع أن أرثي لحظات أهدانيها القدر ثمّ سحبها منّي كما

تسحب السّكين المسنّنة من جسد سكنته في لحظة غادرة، كيف أكتب لك عن لحظات عرفت فيها عصر الحبّ، لينقلب عليّ الزّمان ويذيقني عصر السّقوط، نعم صغيرتي بعدك عشت السّقوط إلى الهاويّة، بعدك عرفت غدر الزّمان وأحسست بوجع الملوك الذين تساقطت عروشهم، فقد كنت ملكا يتربّع على عرش الحبّ وأنت ملكته، سقط عرشي واندثر عصري على ذكراك الّتي مازالت توجعني.

عرفت على يديك معنى السّعادة وظننت أنّني ملكت العالم وألّا شيء بعدها يمكن أن يهزّ عالمي، لكنّ عالمي اهتزّ يوم عرفت تلك الحقيقة الّتي غدرت بعالمي وكادت تقتلني، تلك الحقيقة الّتي أحدثت شرخا أحسسته في رجولتي وأفقدتني القدرة على حبّك كما كنت أفعل مذ عرفتك، سكتت عن الكلام لأسابيع، رغم محاولاتك تخفيف الأمر إلّا أنّ ذلك كان صعبا جدّا، كيف لرجولتي أن تقبل هذا الأمر، كيف يمكنني تقبّل أنّ حبّي لك هباءً منثورا.

أتذكّر ذلك اليوم بعد ذلك الصّمت الرّهيب الذي سكنني والتّفكير الذي أجهدني جئتك أخبرك بقراري بأنّي سأطلقك، ما عدت قادرا على منحك السّعادة الّتي تستحقينها، ما عدت قادرا على حبّك كما تستحقين، لأنّي ما عدت قادرا على حبّ نفسي، كرهت هذا

الرّجل النّاقص، كرهت هذا الجسد الذي خانني وكرهت حبّي لك الذي أضعفني وكان يقتلني ..... "

انفجرت سارة باكيّة وهي تتذكّر تلك الأيّام العصيبة الّتي عرفتها معه تذكّرت يوم وجدته جالسا على الأريكة تحتضن كفاه رأسه كأنّه يحمل هموم الدّنيا بأكملها، انحنت جالسة على الأرض على ركبتيها مقابلة له، تحاول سحب ذراعيه لترى وجهه، نظر إليها نظرة مازالت توجعها كلّما تذكّرتها، حتّى اليوم وبعد كلّ الذي حدث بينهما، نظرة رجل كسرته رجولته الجريحة الّتي ما عاد يدركها، فلبس بعدها رداء الذّلّ والهوان.

ـ سأطلّقك يا سارة.

بكت يومها تستجديه ألّا يفعل.

ـ أرجوك يا صهيب لا تقل هذا لا تحطّمني بذنب لا يد لي فيه.

ـ لا يمكنني أن أسجن عمرك بين متاهات عمري وأنا لا أعلم أيّ رفيق سأكونه بعد الذي عرفته.

ـ أستحلفك بأغلى ما لديك ألّا تكسر قلبي لا يمكنني العيش بدونك حبيبي.

كيف له أن يكسرها وهي أغلى ما يملك، قال كلماته التّاليّة وهو يمنع ألمه عن الظّهور أمامها.

ـ ستنسينني يا سارة عندما تتزوّجين من آخر وستشكرين لي صنيعي ساعتها.

صرخت شاهقة غير قادرة على تخيّل نفسها ملك رجل آخر.

ـ لا يمكنني أن أكون لرجل غيرك سأموت بعدك.

ـ ستعيشين يا سارة وستعرفين ألّا أحد يموت من أجل شخص تركه.

ـ لا تفعل بنا هذا يا صهيب أرجوك حبيبي لا تقتلنا.

ـ لم يعد لي طاقة على الاحتمال يا سارة الأمر أكبر منّي.

تتذكّر سارة أيّامهما الّتي تلت، عاقبها بالسّكوت هجرها وهو معها، لم يقربها لشهور، آذاها بتصرّفاته، آلمها لتكرهه، لكنها لم تفعل بل كلّما أوجعها رمت نفسها في حضنه تعلمه أنّها تحبّه أكثر لأنّه يؤذي نفسه بإيذائها حتّى تتركه، قاومته وقاومت غرور كبريائه وإحساسه بشرخ رجولته.

عادت إليها ذكرى تلك اللّيلة عندما غلبها شوقها وهو ممدد أمامها في سريرهما يقرأ كتابا، لا ينظر إليها ولا يحسّ بلهفتها، اقتربت منه تمرر يدها على ذراعه في لمسة حانية متردّدة ثمّ نقلت كفها صعودا إلى صدره حيث يستكين قلبه القاسي الذي طاوعه على هذا البعد، اقتربت أكثر بوجهها هذه المرّة لتضع قبلة على خدّه وتحمّل شفتيها مشقة المسير إلى فمّه لكنّها فوجئت به يبعدها بعنف لم تعهده وهو يقول:

ـ توقفي عن ذلك إنّك تشبهين العاهرة، على الأقل تلك يدفع لها أمّا أنت فترخصين نفسك بلا مقابل....

كانت الكلمة قاتلة، كيف لامرأة عاشقة أن تتحمّل نعت زوجها لها بالعاهرة، لقد تعوّدت كلماته القاسيّة، هي تعلم أنّه لا يقصدها، لكن هذه المرّة الكلمات كانت أكثر من قاسيّة، كانت جارحة، انتفضت واقفة مهرولة إلى خارج الغرفة تكتم صوت نحيبها وتخفي وديان دموعها، كيف طاوعه قلبه على قول ما قاله، كيف يشبه حبّها وشوقها له بحركات عاهرة، بل ويرخصها، كيف يطاوعه قلبه على هذا الهجر منذ عدّة أشهر دون أن يحن أو يلين، هي تعرف أنّه يعاني وتتفهّم معاناته لكنّها تعاني أيضا ولا أحد يعرف بمعاناتها.... لا أحد يتفهّم معاناتها.... لا أحد يستوعبها هي أو

يواسيها، وقد كانت الكلمة هذه المرّة قاسية جدّا على كرامتها وكبريائها، لكن ماذا بيدها لتفعله أتستطيع أن تعاتبه، أتعطيه فرصة لينفذ ما ينتويه أتعطيه سببا مقنعا للطّلاق، إنّها تحترق بهجره وقسوته لكنّها بدونه ستموت.

" ..... أتذكّر يا سارة معاملتي لك مازالت توجعني نظراتك الحانيّة، مازالت تؤلمني نظراتك الكسيرة. صدقيني سارة كنت أؤذي نفسي أكثر من أذيتك، كنت أقسو على نفسي أكثر من قسوتي عليك، كنت أنا الجلاّد والمجلود كنت أنا الذّابح والمذبوح، أتذكّر يوم نعتك بالعاهرة، أتذكّر نظراتك المذبوحة يومها ورغبتي في الرّكض وراءك، في احتضانك والاعتذار منك، أتذكّر رغبتي في ضرب نفسي، كلّ كلمة آذيتك بها كنت أقطع بها وريدا من أوردتي، كم مرة منعت نفسي عن الاعتذار، عن استجداء عفوك، لكنّني كنت مجروحا مغشى على عيني بعجزي و أردتك أن تكرهيني، أن تبتعدي عنّي بإرادتك، أن تخرجي من شرنقتي أنت الفراشة الحرّة الّتي كنت أخشى أن تحلق بعيدا عنّي، كنت حينها أريد أن أمنحك جناحين لتطيري بعيدا عن عالمي، لتعرفي معنى السّعادة الحقيقيّة، أردتك أن تجدي بعيدا عنّي ما عجز جسدي النّاقص عن منحك إياه، كنت أدرك أنّ ذلك سيقتلني، لكنّني لم

أتوقّع ذلك الذي حدث بعدها ولو توقّعت ما كنت تركتك ترحلين لا أستطيع اليوم أن أجزم أكانت تلك قسوة الأقدار أم حماقاتي الّتي دفعتك لفعل ما فعلتِ، أم أنّ جرحك كان أكبر من جرحي وكنت أنا غافلا عنه.

تعود دائما تلك الجملة ترنّ بداخل رأسي (ستعيشين يا سارة وستعرفين ألّا أحد يموت من أجل شخص تركه) أدرك الآن كم كنت أحمقا وجاهلا، لأنّني أعرف اليوم أنّه يمكن لشخص أن يموت وهو حيّ لأنّ شخصا هو الدّنيا في عينيه قد تركه ما عدت قادرا بعدك يا سارة على الحياة، ما عدت قادرا يا وجعي على مسامحة نفسي ما عدت قادرا يا ترياقي على إسكات ألمي، ما عدت قادرا يا علّتي على مداواة جرحي بعدك.

لا تقوى يدي اليوم على خطّ ما حدث بعدها، ثقيلة هي الكلمات على يدي، ثقيل وقعها على ذاكرتي، جرحتك يا سارة حتّى استحالت حياتنا إلى صمت مطبق وما عدت قادرة حتّى على المحاولة معي .... "

تعود الذّكرى بسارة يوم أخذها إلى بيت أهلها في زيارة ولم يتّصل بعدها، رفض الرّدّ على اتّصالاتها إلى أن فوجئت بوالدتها

تطلب منها الخروج من غرفتها لذلك الواقف أمام باب بيتهم، لتتسلّم محضر استدعاء أمام المحكمة لقضيّة طلاق.

تتذكّر كيف انهارت في حضن والدتها تبكي وتصرخ ألما، بينما يقطر قلبها دمّا على رجل منحته عمرها وقلبها فذبحها دون تردّد.

تتذكّر جلسة الصّلح عندما سألها القاضي عن ردّها على طلب الطّلاق رفعت إليه عينين قتيلتين وهي تقول:

ـ أستحلفك يا صهيب بحقّ وجعي وهواني أن تعود عن ضلالك أنا أريدك أنت ولا يهمني بعدك العالم، لا تذبحني يا صهيب بعد أن منحتني الحياة وأنت تعلم ألا حياة لي قبلك ولا بعدك.

تتذكّر هوانها عليه عندما نطقها دون أيّ تردّد دون أن يرفّ له جفن.

ـ أنت طالق....

اهتزت الأرض تحت قدميها واسودّت السّماء في عينيها، توجعها الذّكرى تمزقها كأنّها حدثت قبل لحظة تتردّد كلماته في أذنيها موجعة.

اختنقت عبراتها وضاق نفسها وهي تستعيد الذّكرى الذّابحة الّتي عاشتها.

يوم أدار لها ظهره ومضى ولا كأنّه أحبها سنوات طويلة وانتظرها عمرا بكامله وكأنّ قلبه ما دقّ يوما لها ولا شرع أبوابه لها كمدينة تستقبل ملكتها، يوم تركها تتخبّط وحدها كطير مذبوح ينزف دون أن يعرف الموت طريقه إليه.

أغلقت سارة الرّسالة بعد أن أنهكتها الذّكريات المؤلمة غير قادرة على إكمالها استلقت على سريرها وأغمضت عينيها تبحث عن الرّاحة، تلك الرّاحة الّتي غادرتها منذ زمن يبدو لها دهرا، لكنّ الذّكريات كانت تهاجمها وتمرّ عليها موجعة تأبى الرّحيل والاستقرار بعيدا، حيث يمكن لسارة ردمها ودفنها لكن هيهات، لقد اتّفقت المواجع وتحالفت ضدّها تسكنها وتهزّها ليرتجف جسدها كلّه وهي تدخل في نوبة بكاء تكتمها بوسادتها حتّى لا تسمعها والدتها، تذكّرت ألمها وغضبها، تذكّرت قسوته يوم طلقها ورحل عنها، تذكّرت حين قابلته صدفة بعدها ليتوقف ويسألها بكلّ جرأة عن حالها وكأنّه كان ينتظر أن تقول له أنّها بخير وكأنّه كان بإمكانها أن تكون بخير بعد الذي فعله بها.

ـ كيف حالك سارة؟

نظرت إليه نظرة حادّة غاضبة وهي تقول:

ـ سأكون بخير، قريبا جدّا سأكون بخير وأقسم يا صهيب بحقّ ذلك الحبّ العظيم الذي حملته لك بين أضلعي أن أوجعك بحجم هذا الوجع الذي حملتني إيّاه دون اكتراث وأنت تذبحني وترميني خارج حياتك دون أن تبالي.

أغمض عينيه يخفي وجعه، لم يبالِ بتهديدها لكن ما أحرقه إحساسه بوجعها الذي حملته كلماتها، صمت دون إجابة لأنّه كان يظنّ أنّها بذلك تمضي إلى كرهه وذلك ما كان يسعى إليه، حتّى لو كان ذلك أيضا ما كان يقتله وكانت هي غافلة عن ذلك في خضمّ ألمها وغضبها.

مرّ عليها زمن وهي تحاول الهدوء،عادت تفتح الرّسالة يشدّها فضولها ويدفعها وجعها.

" ... فعلتها يا سارة برغم قلبي وقلبك النّازفين، فعلتها وقسوت أكثر.

قسوت أكثر وأنا أدرك أنّني أذبح عمري وأظنّ أنّني أمنحك الحياة وطلقتك يا سارة ما عدت زوجتي ما عدت تحملين اسمي، وخرجت من حياتي، لكنّك لم تخرجي من وجداني الذي كان يبكيك، ما غادرت قلبي الذي كان يرثيك ولا رحلت عن حواسي الّتي كانت تتشبّث بذكراك وتتمسّك بعبق الحنين إليك.

مذ عرفت يا سارة أنّني غير قادر على منحك طفلا بعد أن قبلت أخيرا أن أعرض نفسي على الطّبيب الذي أخبرني أنّ نسبة خصوبتي ضئيلة جدّا وقدرتي على الإنجاب ضعيفة جدّا وأنا أرى عجزي في عينيك، كلّما نظرت إليك، كلّما اشتقت إليك، كلّما أخذني الحنين إلى حضنك، كلّما أردت أن أقربك، لا أصعب على رجل يا صغيرتي من إحساسه بعجز رجولته الّتي تخونه أمام حبّه.

كيف يمكنني تقبّل أنّ حبّنا لن يثمر يوما بطفل يشبهك ويحمل بعضا منّي، كيف أستطيع أنا الرّجل المولود في عائلة بها أربعة أشقاء ذكور وصهرين ومتزوّج من امرأة لها ثلاثة أشقاء كلّ منهم له طفلان أو ثلاثة، أنّني أقلّ من هؤلاء الرّجال كلّهم لأنّني وحدي من بينهم عاجز أن أمنح زوجتي نطفة سليمة تثمر طفلا، كيف أقربك وأنا غير قادر على زرع بذور حبّي لتنمو بداخلك.

طلقتك يا حبيبتي لتجدي سعادتك مع غيري، أخبرتك أنّني سأتركك لرجل حقيقي باستطاعته أن يمنحك طفلا فمذ عرفت أنّني رجل ناقص ما عدت أراني ندّا لك استجديتني، ترجيتني ألّا أفعل بنا هذا أنّك لا تريدين أطفالا. بأنّ الأمر بيني وبينك ويمكنك أن تدعي بأنّ العيب منك أنت ما كنت لأقبل بذلك يا سارة أنا الرّجل الذي كسرته رجولته ما كنت سأقبل أن أحملك نقصي أنا أمام مجتمع لا يرحم امرأة ناقصة غير قادرة على منح زوجها طفلا كنت أمنحك حرّيتك، أحرّرك منّي لأنّي رفضت أن أظلمك معي يكفي أنّ الأقدار تظلمني أنا وسأتحمل هذا القدر وحدي .."

عادت سارة تسترجع عدم استيعابها لشعوره بهذا النّقص بمجرد أنّه لم يكن قادرا على الإنجاب لم تكن تفهم لماذا يختصر هو الرّجولة في قدرته على الإنجاب بينما كانت هي تراه سيّد الرّجال وملكهم وما عاد بعده عندها للرّجولة معنى فقد اختصرها زوجها في عينيها في اسمه في أخلاقه وحبّه في معاملته لها منذ تزوّجها بل منذ عرفها وهو يرفض أن يسيء لها حتّى بالتّصريح بحبّه.

لكنّ جرحه بعد الذي فعله بها أعمى بصيرتها وأوقد نارا بداخلها كانت تحرق قلبها وروحها.

بعد انتهاء عدتها بأيّام تقدّم رمزي جارها منذ سنوات لخطبتها يخبرها أنّه كان يخفي حبّه لها وفوجئ بزواجها وأنّه يشكر القدر الذي أعادها إليه وافقت دون تردّد وهي تفكر بأنّها بذلك تردّ الطّعنة لصهيب تريه أنّها شفيت منه وأنّها تركته وراء ظهرها ومضت في حياتها.

عندما سمع صهيب بخطبتها وزواجها القريب كاد يفقد عقله، قارب على الجنون حدّ الهلوسة، لكنّه كان يقنع نفسه بأنّ هذا ما أراده لها، أن تتزوّج رجلا قادرا على منحها طفلا، على منحها أمانا ومستقبلا فيه أبناء يشبعون إحساسها بالأمومة، وما كان هو هذا الرّجل لأنّه كان عاجزا غير قادر على منحها ما تصبو إليه أيّة امرأة في العالم، ستكون سعيدة ويكفيه هذا ليعيش بعدها موجوعا مذبوحا لكنّ حبيبة عمره سعيدة حيثما كانت.

يوم زفافها كان يقف هو في شرفة منزله، ذاك الذي كان منزلهما ذلك الذي اختاره مقابلا لبيت أهلها لتكون قريبة من والدتها، يسمع ضجيج العرس و يكاد يموت توجعه روحه ويرتعد جسده من الحمى، حمى حبّها وفراقها حمى، تخيلها بين يدي رجل آخر، كيف سيطاوعه هذا العقل الذي يكاد يفقده على تحمل أنّها صارت لغيره، صارت ملك رجل آخر هل سيقبل شفتيها مثلما

كان يفعل هو، أسيأخذها في حضنه ليلا حتّى تنام بين يديه كما كان يفعل هو، هل ستحبّه مثلما أحبّته هو، سيمنحها ما لم يستطع هو منحه لها سيهبها طفلا، هل سيشبهه طفلها، سيحمل ملامح هذا الرّجل ليذكّرها به فتحبّه بقدر حبّها لهديته، هل أضاعها نهائيا، استفاق على هذا الواقع المرّ وهو يحدّث نفسه.

(ألم تكن تعرف يوم طلقتها؟ أأدركت الآن فقط أيّ خسارة سببتها لنفسك ألم تترجك آلاف المرّات ألّا تفعل؟ ألم تخبرك أنّها تريدك أنت وحدك؟ أأوجعتك رجولتك وظننتها أكبر الأوجاع جرّب الآن وجع انتمائها لرجل غيرك جرّب نار غيرتك وأنت تتخيّلها كلّ يوم في حضنه)

لم يحس صهيب برأسه يضرب زجاج النّافذة ليتكسّر ويتناثر شظايا على الأرض بينما الدّماء تجري من جبينه وضع يده يضغط على الجرح مغيبا متّجها إلى الحمام ينظف بالماء وجهه الغارق في الدّماء، نظر إلى المرآة لينعكس وجهه عليها لم يعرف هذا الوجه الذي يبدو له وكأنّ الحياة غادرته، وضع يده على جرحه وهو يكتشف أنّ الجرح ليس هنا، الألم ليس هنا بل هناك داخل صدره حيث ينتفض قلبه في نحيب من فقد عزيزا وأيّ عزيز هذا الذي فقده هو، عزيز كان له الحياة منذ أدرك هذا القلب

أنّه خلق لينبض فحملت نبضاته اسمها. كيف سيعيش بعدها ونبضات قلبه لا تعرف كيف تخفق بغير اسمها؟

وضع بعض اللّاصق على جبهته واستلقى على فراشه يحتضن وسادتها الّتي مازالت تحمل بقايا رائحتها، يصرخ باسمها مرارا وتكرارا كأنّها ستسمع صوته ستدرك وجعه، ستعرف أنّه يموت لتحيى هي، سمع صوت مزامير السّيّارات الّتي كانت تحملها إليه، هو زوجها بينما كان يحسّ بعذاب روحه كمن يعيش سكرات الموت الطّويلة دون أن يريحه الموت بالقدوم أخيرا ولكم تمنى ساعتها أن يحضره الموت قبل أن تصبح زوجته فعلا قبل أن تصل إلى بيته، لكنّ رحمة مثل هذه كانت بعيدة لا تستحقها روحه المعذّبة.

مرّ عليه زمن عندما سمع ضجة في الشّارع الذي كان قد صمت بعد رحيلها، نظر إلى السّاعة المعلّقة على الحائط والّتي كانت تشير للثّالثة صباحا، وقف مسرعا متّجها إلى الشّرفة ليرى صديقه كريم يمسك والدته من مرفقها يساعدها على التّقدّم نحو السّيّارة بحركاتها المتثاقلة على قدر ما ساعدها مرض ركبتيها الذي أصبحت تعاني منه منذ سنوات قليلة، بينما ينتظر ابنها الثاني وليد أمام السّيّارة تبدو عليه إمارات القلق والتّوتر لا يعلم

لما انقبض قلبه ساعتها، أخذ مفاتيح سيّارته ونزل مسرعا وجد السّيّارة قد تحركت فانطلق وراءها بغير تفكير وهو يدرك يقينا أنّ الأمر يخصها هي.

أوقف سيارته وركض يتبع خطواتهم ليلحق بهم والباب يفتح كان هو زوجها من فتحه وتنحى جانبا تاركا لهم المجال للدّخول في صمت مطبق لم يقطعه أي واحد منهم، وقف فجأة مصدوما مدركا حمق فعلته ما الذي جاء به الآن إلى بيت زوجها ليلة زفافها، تراجع إلى الوراء لتوقفه صرخة والدتها (ما الذي فعلته بابنتي)

أسرع راكضا يقتحم البيت ليجد الجميع واقفون داخل غرفة في الزّاوية تقدّمت خطواته ليقف مصدوما أمام المنظر الذي رآه.

كانت هي هناك منكمشة على ظهر السّرير العريض تلمّ نفسها في ملاءة بينما تحتضنها والدتها في جزع تتفقّد وجهها الملوّن نتيجة كدمات واضحة بينما تسيل الدّماء من طرف شفتيها، نقل وليد نظراته بين شقيقته وزوجها الواقف هناك وهو يقول في غضب يكتمه محاولا فهم الأمر قبل أن يفقد أعصابه:

ـ ما الذي حدث هنا؟

وقبل أن يجيب أحدهما أو يفهم هو رفعت هي عينيها لتصطدم بعيني صهيب ليرعبه ذلك الخواء الذي سكنهما وقبل أن يترك الفرصة لشقيقيها لفهم الأمر ودون أن يشعر وجد نفسه ينقض على رمزي يضربه برأسه على أنفه فتنفجر الدماء منه ثمّ فاجأه بعدة لكمات على بطنه، استفاق رمزي من المفاجأة يردّ على هجوم صهيب فاشتبك الرّجلان أمام أعين المرأتان المذهولة وتدخل كلّ من كريم ووليد لفكّ النّزاع، كان الغضب السّاكن داخل صهيب يعطيه قوة جنونيّة لم يستطع كريم الممسك به سحبه بعيدا عن رمزي فاضطر وليد لترك رمزي حتّى يساعد في إبعاد صهيب عنه لكنّ هذا الأخير انفلت منهما قافزا إلى الأعلى بقدم تتقدّمه لتحطّ على صدر رمزي الذي عاد متراجعا ليصطدم بالحائط تعالت الأصوات بين بكاء المرأتين وصراخ رمزي ومحاولات الشّقيقين منع الرّجلان عن بعضهما وقف رمزي مستجمعا غضبه ليسدّد لكمتين متتاليتين لصهيب الذي كان كريم ووليد يمسكان به فعاد صهيب للصّراخ.

ـ أتركني أقتله، سأقتلك أيّها الجبان أهكذا علّموك معنى الرّجولة أن تضرب امرأة أيّها الأحمق.

ـ ليس لك أيّ دخل من أنت لتدخل بيتي وتتحدّث عن زوجتي.

ـ ليست زوجتك أيّها الجبان، أنت لا تستحقها لأنّك لم تعرف قيمتها.

ـ وأنت عرفت قيمتها لذلك طلقتها أليس كذلك.

جاء صوت كريم متدخّلا:

ـ كفّا عن الفضائح أنتما الاثنين ألا يكفينا ما حدث.

لم ينتبه أي منهم لتجمع الجيران أمام باب الشّقة حتّى دخل رجال الشّرطة يستفسرون عن المشكل بعد أن اتّصل بهم أحد الجيران.

أخذت الشّرطة صهيب ورمزي على أساس مشاجرة لسماعهما والتّحقيق معهما أخفى الاثنين سبب الشّجار. بينما تأكّدت الشّرطة أنّ صهيب تهجّم على رمزي في بيته، بات الاثنان في مركز الشّرطة وهما في غرفة الحجز المؤقت عاد الرّجلان للشجار لأنّ رمزي الذي كان يريد أن يكسر صهيب من غيرته وحقده عليه أخبره أنّه أخذها عنوة وأنّها أصبحت زوجته رغما عنه وعليه أن يعيش مع هذه الحقيقة، استشاط صهيب ونار الغضب تعمي بصيرته لينقض من جديد على رمزي يحاول أن يأخذ حقّ حبيبته من هذا المسخ الذي آذاها ويتفاخر بذلك.

اضطر رجال الشّرطة للتدخل وانهالوا بالضّرب على صهيب الذي كان يرفض ترك رمزي ويصرخ كأسد جريح داخل معركة يرفض الخروج منها لأنّها معركة كبرياء، لينفصلا أخيرا بعد أن أنهك صهيب من وقع الهراوات المتتاليّة على جسده وسقوط رمزي غير قادر على مقاومة هذا البركان المشتعل الذي يجتاحه.

تمّ وضع كلّ منهما منفردا في غرفة حجز ليعرضا في الغدّ على وكيل الجمهوريّة كانت الأحداث في صالح رمزي والتّهمة الموجهة لصهيب الاعتداء بالضّرب من طليق على زوج طليقته يوم زفافها في بيته، قام وكيل الجمهورية بإصدار أمر بالحبس في حقّ صهيب حتّى موعد المحاكمة، بينما أطلق سراح رمزي لأنّ لا أحد منهما ذكر أصل النّزاع وتحاشى الاثنان إدخال سارة في القضيّة، واحد حرصا على سمعتها والآخر خوفا من اتّهامه ومعاقبته.

نقلت سارة إلى بيت والدتها وعرضت على طبيب صديق لشقيقها، ما إن استفاقت من صدمتها حتّى سألت عنه و كأنّ روحها تأبى إلّا أن تخونها تهفو إليه وتخشى عليه حتّى بعد الذي فعله بها، سألت والدتها في لهفة لم تستطع إخفاءها:

ـ ما الذي حدث بعد أن أخذته الشّرطة.

أدركت والدتها أنّها تسأل عن صهيب وليس عن رمزي لكنّها تظاهرت بعدم الإدراك أمام ابنها كريم.

ـ لقد أطلق سراحه وسيعرض صهيب على العدالة للنّظر في قضيته.

انقبض قلبها رغما عنها وهي تقول:

ـ لماذا؟ هو لم يفعل شيئا، رمزي هو من اعتدى عليّ.

تدخّل كريم في الحديث:

ـ لم يتم زجك في القضية، هو متهم بالاعتداء على زوجك في بيته، إذا كنت تريدين سنتقدّم بشكوى ضدّ رمزي من أجل ما فعله بك، أنا لم أفعل شيئا لأنّ القرار قرارك وسأفعل ما تطلبينه.

سكتت سارة قليلا تلتقط أنفاسها المضطربة ثمّ أجابت:

ـ أريدك أن تقابل رمزي أعلمه أنّني أريد الطّلاق في أقرب وقت، وأريده أن يتنازل عن القضية ضدّ صهيب وإلّا سأشهد معه في المحكمة وأرفع ضدّه شكوى بالاعتداء عليّ بالضّرب يوم زفافنا.

ـ هل ستفهمينني لماذا فعل ذلك؟

أغمضت سارة عينيها متألمة وهي تجيب بموارة لبعض الحقيقة.

ـ الغيرة أعمت قلبه، لم يكن في وعيه وهو يفعل ما فعله.

أجاب كريم في غضب واضح:

ـ الغيرة ممّن؟ ألم يكن يعلم أنك كنت متزوجة قبله، انسي ما طلبته منّي الآن سنرفع الشّكوى وسنقاضيه سأجعله يدفع ثمن فعلته غاليا.

تدرك سارة أنّ شقيقها جاد في ما ينويه لكنّها لا تريد للأمور أن تصل إلى هنا لذا آثرت تهدئة شقيقها حتّى بالكذب.

ـ أنا ذكرت صهيب أمامه وهو فقد عقله، لا أريد أن يمتدّ الأمر ليصل إلى القضاء وسنوات من الرّكض بين أروقة العدالة، أنا أخطأت لأني قبلت الزّواج به وأنا غير مستعدة للارتباط من جديد، أرجوك أخي أريد أن أرتاح فقط، أريد أن أنسى كل ما حدث وأستعيد حياتي، أرجوك أخي...

ـ أتريدينني أن أترك هذا الأحمق ينجو بفعلته، لن أكون كريم إن لم أجعله يطارد خياله ندما على ما فعله بك

تدخلت أمّ سارة في الحديث تساند ابنتها:

ـ بني أرجوك نفذ لها طلبها لم يعد لها جهد لمقاضاة أحد أتركها تنسى لترتاح.

لم يكن كريم يقدر على تجاهل توسلات شقيقته الوحيدة ولا على ردّ كلمة والدته قال آسفا مرغما.

ـ حسنا سأتدبر الأمر.

ما أخفته سارة عن الجميع أنّه اغتصبها، يوم دخلتها لم تستطع سارة مجاراته ولم تتجاوب معه، فقد عقله وهو يسألها:

ـ أمازلت تحبينه، أهو صهيب الذي يقف بيننا.

لم تستطع الكذب عليه وهي تطلب منه أن يصبر عليها حتّى تتعوّد عليه.

ـ لماذا قبلت الزّواج بي إذا كنت مازلت تحبينه.

أحنت رأسها في ألم وهي غير قادرة على إنكار هذه الحقيقة مازال حبّ عمرها يسكنها مازال هذا الرّجل الذي ذبحها يملك قلبها.

فقد رمزي عقله وهو يرى صمتها تأكيدا لكلامه، انقض عليها يأخذ حقّه عنوة ولما قاومته ضربها حتّى أضعف مقاومتها واغتصبها، بالنّسبة إليه لم يكن اغتصابا فالزّوج لا يغتصب امرأته لأنّها ملكه جسدها حقّه لكنّه كان اغتصابا فعلا لأنّ الحبّ لا يأخذ عنوة والرّجل الحقيقي لا يأخذ من امرأة أيا كانت ما لا تعطيه له بحبّ وطيب خاطر، ما الفرق بين فعلته وفعلة من اغتصب امرأة ليست زوجته أهي ورقة بينهما أعطته حقّ انتهاك جسدها وروحها رغما عنها، لا فرق بينهما لأنّ كلاهما أخذها عنوة كلاهما أخذ شيئا لم ترض صاحبته بإعطائه له كلاهما قتل بداخل هذه المرأة ثقتها وشعورها بأنوثتها كلاهما كسر روحها وأخمد لهيب الحياة بداخلها، كلاهما آذى روحها قبل أن يؤذي جسدها.

انصاع رمزي مكرها لطلبها وخوفا على نفسه من دخول السّجن.

بعد عدة أيام قضاها في السجن يأكله عجزه ويقتله خوفه عليها، خرج صهيب من دون متابعة أسقطت التّهمة عنه بصفح وتنازل الضّحية، عاد إلى بيته كسيرا يحمل همّا آخر في قلبه الذي أنهكته الهموم، كلّ ما حدث لها كان بسببه طلقها وهي تترجاه ألّا يفعل

ظنّا منه أنّه يمنحها الحياة، لم تصبر أكثر من شهور عدتها لتتزوّج بشخص آخر انتقاما منه، وها هو يهديها ألما جديدا لأنّها لم تشفَ منه، هل كان الأمر يستحقّ كلّ هذا، هل أخطأ عندما طلقها؟ هل كان يجدر به ألا يفعل؟ هل لو كان بقي معها كان حالهما أحسن اليوم؟ هل كان يمكن لحبهما أن يصمد ضدّ رجولته الجريحة؟

**********

خرجت سارة إلى الصّالة تحاول أن تتناسى تلك الرّسالة الّتي أعادت إليها ذكريات كانت قد دفنتها وجاءت لتقلب عليها مواجعها الّتي أبعدتها في ركن مقصي من قلبها حتّى تستطيع أن تقف على رجليها من جديد وتكمل حياتها بعد كلّ المصائب الّتي عرفتها سنواتها القليلة، كان يناديها دائما صغيرتي، لكنّه جعلها تكبر أعمارا بقسوته وعناده، تطلب الأمر منها جهادا كبيرا وشجاعة أكبر لتعود من جديد إلى بعض من روحها الّتي فقدتها في طريق رحلتها وضياعها على يديه، عادت إلى الجامعة تكمل دراستها الّتي أوقفتها عندما تزوّجته ذات عمر، عندما ظنت أنّه وحده سيكفيها وسيغنيها عن العالم، أدركت ألا أحد في العالم يمكنه أن ينقذها إذا لم تشأ هي إنقاذ نفسها، قرّرت أن تنسى وأن تبدأ من

جديد، تعلّمت ألّا تختصر العالم في رجل وأنّ الحياة أثمن من أن تضيعها في الأسى على ما كان، حتّى لو كان ما كان يوجعها اليوم بشكل رهيب كمارد انتفض من تحت الرّماد لينتقم، هي المظلومة وهو الظّالم، لكنّه أرسل الرّسالة لينبش في جراحاتها ليزيدها ألما ونزيفا.

في المساء كانت سارة تحاول النّوم منذ ساعتين، تتصارع بين فضولها في مواصلة قراءة الرّسالة وعزمها على إهمالها، أدركت أخيرا أنّها لن تنام حتى تكمل هذه الرّسالة ولتنسى بعدها أنّه أرسلها، وأنّها قرأتها استقامت جالسة على فراشها وأخذت الرّسالة تواصل قراءتها.

" ..... وجاء ذلك اليوم يا سارة قتلتني وما ظننتُ أنّك قادرة على فعلها رغم أنّي طلقتك لتفعليها، لكنّ التّوقّع شيء والإدراك شيء آخر، أدركت في رعب أنني فقدتك إلى الأبد، أصبحت زوجة رجل آخر تحملين اسم رجل غيري وقريبا ستحملين طفله، كدت أفقد عقلي يا سارة، كدت أموت، عشت ساعات أتخبّط أعاني سكرات الموت دون أن أموت وكم تمنيته يا حبيبتي ساعتها، لأنّني ما استطعت تحمّل هذا الواقع، واقع أنّك أصبحت ملكه، وعندما كنت أظن أنّ هذه أكبر أحزاني جاءتني الضّربة القاضيّة،

رأتك عيناي يا سارة كسيرة مقهورة وقد رمتك يداي في براثن ذلك الحيوان الذي اغتصبك في ليلة كنت تذبحين فيها على يديه، بينما السّكين تمرّ على رقبتي أنا دون أن أعرف أنّه يفعل ذلك بي وبك، اليوم يا سارة تمرّ أكثر من سنتين على تلك اللّيلة الرّهيبة الّتي انطفأ فيها القمر وتساقطت نجوم السّماء حزنا على حبّنا الضّائع، اليوم تمرّ أكثر من سنتين من عمر أضعته واهما أنّ الرّجولة هي في قدرتي على منحك طفلا من صلبي، لكنّني أدركت متأخّرا أنّ الرّجولة هي أن أمنحك الحياة لتتحوّل سنواتك إلى حبّ يجعلك أجمل النّساء وأسعدها، اليوم أدركت يا صغيرتي أنّ ما من رجل على وجه الأرض كان قادرا على منحك هذا الحبّ مثلي أنا، أدركت اليوم أنّه ما من رجل كان يمكن أن يكون أكثر رجولة معك منّي، لأنّ حبّي لك كان سيجعلني أحرص الرّجال عليك وعلى حبّك، أدركت يا عمري أنّ الرّجولة هي أن أجعلك أنثى تتفوّق بروحها على كلّ النّساء لأنّها ترى ذلك في عيني رجلها وقد كنت رجلا أغمض عينيه ليمنع عنك هذه الرّؤية، كيف لقلب عشقك بحجم هذا الألم القاتل بداخله اليوم أن يحيا بعدك.

عندما خرجت من السّجن يا سارة عدت إلى بيتنا، ذاك الذي شهد عصرنا الماسي وسقوطنا المدمر إلى هاوية الأحزان، أنت تعرفين يا سارة بأنّني رجل لا يبكي، في أحلك لحظات حياتي لم أبك، عند موت والدي ورغم الألم الذي كان يعتصرني لم أبك، عندما طلقتك يا سارة لم أبكِ، عندما تزوّجت من غيري يا سارة لم أبك. عندما انهال رجال الشّرطة على جسدي يضربونه ليفصلوه عن ذلك الجبان حتّى لا أقتله لم أبك، لكنّ يومها بكيت، بكيت كما تبكي النّساء بكيت بكاء امرأة ثكلى مكلومة عاجزة مسكينة، بكيت ألمك و حسرتي، بكيت أحزانا فرضتها على نفسي لأهبك الأفراح، لكنّ الأقدار أبت إلّا أن تمنحك قهرا، بكيت عجزي يومها أمامه هو زوجك وأنا طليقك، بكيت عمرا أضعته هباءً كان يمكن أن أرفعك فيه إلى سقف أمنياتك، لكنّني بغبائي وتعنتي أنزلتك إلى جحيم مخاوفك وتركت يدك وسط الطّريق لأضيعك وأضيع معك، كيف لغلطة واحدة ارتكبتها أن تجرّ كلّ هذه الأحزان معها، كيف سمحت لقلبك الذي عشقني يوما أن يرحل بعيدا عنّي، بل كيف استطعت أن أبعده أنا وأنا أدفعه دفعا للرّحيل وما استشفيت ولا رأيت اختناقه بعيدا عنّي، و لأنّي كنت أعيش على نبضات قلبك فإن اختناقه كان يتسبب رويدا رويدا في

موتي، كمريض نزعت عنه أنابيب الأكسجين الذي كان يعيش عليه في انتظار خروج روحه.

عدتِ يا صغيرتي رويدا رويدا إلى الحياة، عادت تلك الفتاة الّتي راقبتها تكبر منذ احتمت بي وهي صغيرة ترفع رأسها لتعيش من جديد، تتساءلين اليوم عن سرّ هذه الرّسالة لماذا الآن، لماذا اختفيت كلّ هذا الوقت لأظهر من جديد، أنا يا حبيبة عمري لم أختف، أنا بقيت واقفا فقط في الظل حيث لا تراني عيناك، أراقبك من بعيد وأصلي من أجلك، توثقت علاقتي بربي وأصبح لي موعد معه كلّ ليلة أناجيه فيها وأختصر دعواتي عليك أنت أن يشفي قلبك، أن يعطيك القوّة على الوقوف من جديد، أن يداوي جرحك ولم أستطع أن أمنع أنانيتي في دعوة لم ينطقها لساني ولكن سمعها ربي من مناجاة قلبي، أن يعيدك إلي يا سارة لأقف أنا من جديد، لأنّ ما حدث يا صغيرتي كسرني وهدني، أصبحت أسير في الحياة يا سارة بقلب جريح يعرج متألّما غير قادر على مواصلة المشوار وحده وروح تتسرب منّي في بطء حتّى تكاد تختنق الحياة بداخلي.

لماذا الآن؟ لأنّك أكملت دراستك الجامعيّة وبعد أيّام تظهر نتيجتك وأنا واثق من نجاحك، لماذا الآن؟ لأنّني يا سارة منذ

استرجعت وعيي بدأت في رحلة علاج طويلة وأنا أحلم بوصولي أخيرا إليك، لأنّ الطبيب أخبرني أنّه أصبح بإمكاني منحك طفلا عن طريق تقنية الأنابيب.

لماذا الآن لأنّني يا وجعي أحس أنّي وصلت إلى مرحلة الاحتضار ووحدك قادرة على إعادة الحياة لي، لأنّ نار الشوق بداخلي ترفض أن تخمد وتكاد تحرقني، لأنني يا صغيرتي أريد أن يشيب شعري وتكبر سنواتي رفيقة لسنواتك ، لأنّني يا عمر عمري ما عدت قادرا على البقاء في الظّل، ما عاد قلبي يتحمل وجع بعدك، لأنّ كلّ حاسّة من حواسي و كلّ ذرة من جسدي، كل أنة من أناتي وكل نفس من أنفاسي تصرخ بي مطالبة بإرجاعك إلى حياتي، يا شمس حياتي الّتي غادرتني يا غربتي التي توجعني، ما عدت قادرا على الحياة دونك لأنّ ذنبي يقتلني وندمي يدميني، لأنّي أضعتك بغباوتي وأريد أن أعيدك حيث لن تجدي موطنا أوفى من قلبي الذي غادرته ذات يوم فاستوطنه الألم واليأس ونار الشّوق بعدك.

أريد أن أتزوّجك من جديد يا سارة، أريد أن أعوضك سنوات القحط الّتي عشتها بعيدا عنّي، أريد أن أعيدك لعرشك تتملكين هذا القلب الذي تيتّم بعدك، اسمحي لي يا صغيرتي أن أعود، اسمحي

لغربتي أن تنطفئ على وقع عودتك، كلمة واحدة يا سارة لأمنحك عمري مع وعدي ألا أترك يدك مرّة أخرى وألّا أضيعك أبدا حتّى لو اشتدّت العواصف في طريقنا، سأبقي على حبّنا يا سارة وأعيش عمري أغدي جمراته لهيبا لعشقي، لا يخمد أبدا، كلمة واحدة يا حبيبتي انتظارها هو ما يبقيني على قيد الحياة، هو ما يمنعني من الاستسلام للموت الذي يترصّد بي، سامحي ضعفي صغيرتي ولا تحرميني هذه الكلمة، سأنتظرها يا قلب القلب متى استطاع قلبك أن ينطقها، سأنتظرها حياتي كلّها، لأنّ حياتي ما عادت حياتي منذ ملكتها ذات مطلع شمس وغروبها قد طال منذ اغتربت أنت عنها... سأنتظرها حبيبتي.

إمضاء عاشقك الذي ضاع منذ أضاعك

طوت سارة الرّسالة تحتضنها تبلّلها دموعها الّتي لم تتوقف منذ عادت لمواصلة قراءتها، عادت أوجاعها لتعلو على السّطح كأرض حرثها صاحبها للتو ليرجع أسفلها إلى أعلاها، رسالة أيقظت أحزانها الّتي خدرتها منذ زمن طويل لتستطيع السير من جديد، كلّ كلمة فيها كانت موجعة أكثر من سابقتها، كلّ كلمة

كانت تسمع فيها أنينه، كلّ كلمة كانت تحمل صرخة من صرخات ندمه، ولكن هل يجدي هذا نفعا؟ هل يمكنها البدء معه من جديد بعدما تلطخ ماضيهما بكلّ تلك القذارة الّتي التصقت بهما في الطّريق؟ أيمكن لقلبها الذي ذبحه ذات يوم أن يسامحه ويشرع له الأبواب من جديد، هل لديها القدرة لتثق به مرّة أخرى، هل بإمكانه هو أن يتناسى أنّ رجلا آخر امتلكها بأبشع طريقة، صعب، صعب لما كسر بينهما أن يلصق من جديد، صعب بعد كلّ الذي مرّ أن تعود لتضع حياتها بين يديه.

أخرجت ورقة وقلما وكتبت عليها "ذات يوم كتبت لك كلمة على ورقة منحتك بها زمام قلبي فأضعته متعمدا في الطّريق واليوم تطلب كلمة أخرى لتعود ملكا عليه بعد أن تركته وعلمته العيش بدونك، حررته وما عاد قلبي يتحمل قيد أسرك من جديد، تلك الكلمة الّتي تنتظرها ضاعت في زحام غضبه عليك ما عاد قاموسه يحتويها وما عاد بإمكان قلبي أن يمنحها لك".

في الغد قبل أن يغادر شقيقها كريم البيت أعطته الرّسالة ليسلمها لصهيب.

فتحها صهيب متلهفا بعد مغادرة صديقه ليقرأ أسطرها القليلة وقلبه ينقبض مع كل كلمة ألما وحزنا، على حبّ أضاعه وزرع مكانه حقدا يرفض أن يسامحه، أغلق الرّسالة ووضعها في جيب سترته فوق قلبه مباشرة ليتشرب فؤاده كلماتها الّتي تلسعه لتتسبب له في ورم يكبر مع كلّ خطوة في طريقه فيكاد ينفجر الورم متسببا في صمت هذا القلب .....

كان كريم يتصل بصديقه منذ عدّة ساعات يرن الهاتف طويلا لينقطع بدون رد أصابه القلق وهو يخمن ردّ شقيقته على طلب زوجها السّابق، العودة من جديد طرق باب غرفتها ليسمع صوتها تسمح له بالدّخول

ـ أيمكنني أن أجلس معك قليلا.

ـ طبعا تفضل.

ـ سارة حبيبتي تعلمين أني لم أتدخل يوما في حياتك، لكن هذا لا يمنع من كوني كنت أراقب دائما من قريب لأكون بجانبك متى احتجت لي.

ردّت سارة في نبرة ممتنة وهي تتذكر وقوف شقيقها بجانبها بعد أزمتها.

ـ أعرف ذلك وربّما لم أشكرك على ذلك ...

قاطعها صوته:

ـ أنا لا أفتح الموضوع اليوم لتشكريني، أنت شقيقتي الصّغرى مسؤوليتي منذ رحل والدي عن الحياة ولم أنتظر يوما منك شكرا أو امتنانا.

توجست سارة وهي تسأل شقيقها:

ـ لماذا إذن تفتحه اليوم؟

ـ لأنّي أعرف أن الرسالة التي أرسلها إليك صهيب كانت طلب رجوعك إلى عصمته وكنت أود أن أعرف إذا لم تمانعي، ردّك عليه.

أنزلت سارة عينيها إلى الأرض وهي تجيب:

ـ لقد رفضت طلبه.

ـ أيمكنني أن أعرف السّبب يا سارة؟

ـ لأن ما كسر بيننا تسبب في شرخ كبير يصعب جبره والبدء من جديد، لا يمكن أن تعود حياتنا إلى ما كانت عليه، لقد أصبحنا غريبين لا يعرف أحدنا الآخر ولا يستطيع الثقة به.

أخذ كريم نفسا عميقا وهو ينظر إلى شقيقته بروحها المكسورة ونظرتها الجريحة التي سكنتها منذ طلقها صهيب.

ـ سارة حبيبتي أنت تعلمين أنّه رغم صداقتي الطّويلة بصهيب، إلّا أنّني لا يمكن أنّ أغلب مصلحته عليك ولم أكن لأسامحه لولا أنّه أخبرني بسبب طلاقه لك.

رفعت سارة عينين متسعتين نحو شقيقها لم تكن تعلم أنّ صهيب أخبره، لم تكن تظنّ أنّه أخبر أحدا لتسمعه يواصل:

ـ صدقيني يا سارة بينما كنت أنت تتعافين في هدوء كنت أنا أراه ينطفئ في صمت ما رأيت رجلا حزن على امرأة كحزنه عليك، مرت أكثر من سنة وهو يعالج أملا في عودتك إليه، رأيته يا سارة يركض مثل المجنون من طبيب لآخر، رأيته يتمسك بكل خيط، بكلّ وهم وبكلّ سراب يعتقد أنّه يمكن أن يوصله إليك، رأيت يا سارة رجلا ينطفئ كل يوم ولا يعيد اشتعاله إلا تذكرك، أرأيت يا سارة يوما شخص تسكنه سكرات الموت ساعات لتتركه

آخر النهار؟ أنا رأيته يا سارة، منذ أكثر من سنتين وأنا أرى صهيب يصارع الموت متمسّكا بحقّه فيك لأنك وحدك عنده الحياة.

تلألأت الدّموع في عينيها تحاول جاهدة منعها من النّزول، يكفيها بكاءً، منذ فتحت رسالته المسمومة وهي عاجزة عن منع دموعها، لا تريد أن تبكيه أكثر، لقد شفيت منه، شفيت من جراحه الّتي نقشها على روحها بيد قاتل تلذذ بتشويهها، لم تعد تريد أن تضعف مرّة أخرى، لم تعد قادرة على الاستسلام مرّة أخرى لرجل يمكن أن يتركها في منتصف الطّريق دون أن يبالي أو يأخذ عناء النّظر وراءه.

ـ لم أعد أريده أخي لم أعد قادرة على ذكراه في حياتي، سنتين لأشفى منه، لا أريد أن أنتكس من جديد على يديه.

ـ هو تغير يا سارة ما عاد ذلك الرّجل الذي يمكنه أن يتخلى عنك، لأنّه جرّب بعدك

ـ ليس الأمر بيدي إنّه أكبر من طاقتي لا أريد العودة إليه

احتضن كريم يدي شقيقته بين كفيه وهو يقول:

ـ أنت أدرى بحالتك وبقدرتك وأنا لن أضغط عليك.

**********

كان كريم بانتظار صهيب أمام بيته بعد أن جرّه إلى هنا، القلق على صديقه الذي لم يكن يردّ على اتّصالاته منذ عدّة أيّام، منذ سلّمه رسالة شقيقته ما إن رآه حتّى أسرع إليه يسائله:

ـ لم لا تردّ على اتّصالاتي؟ مر أكثر من أسبوع وأنا أتّصل دون أن تتكرّم بالرّدّ أو إعادة الاتّصال.

رفع صهيب عينيه كأنه يعود من عالم آخر...

ـ أعذرني ولكنني كنت مشغولا جدا.

ـ بماذا؟

ـ أنا أحضر نفسي للسّفر.

ـ إلى أين؟

ـ سأستقر في قطر.

ـ أنت مهاجر؟

ـ نعم لم يعد هناك شيء يبقيني هنا وما عدت قادرا على العيش في هذا البلد.

سكت كريم عاجزا عن قول أي شيء وهو يدرك جيّدا السبب الذي يدفع صديقه للهروب من مكان حتّى هواءه يذكره بما فقده، هو الذي راقب تخبط صديقه بين رغبته في الموت وأمله في استعادة حياته مع حبّ عمره.

عندما عاد للبيت أعلم شقيقته أنّ صهيب سيهاجر نهائيا إلى قطر، تلقت هي الخبر بلامبالاة غريبة، دخلت غرفتها ولم تخرج حتّى للعشاء بعدها مدعية التّعب والرّغبة في النّوم وتجاهلت الأمر لأسابيع.

ظهرت نتيجة امتحاناتها تفوقت بمعدّل ممتاز لكنها لم تفرح، كان قلبها يدور بداخلها كمن فقد طريقه فما عاد يعرف أيّ وجهة يتخذها، بل فقد بصره فما عاد يعرف أي طريق يسلكه ضياع، ضياع وظلمة قاتمة تلك كانت حالتها منذ عرفت أنّه مهاجر للأبد، لماذا هذا الضّياع وقد تعودت بعده، تعودت حياتها بدونه منذ أكثر من سنتين، لماذا اليوم يسكنها هذا الخوف وكأنها تفقده لأوّل مرّة؟ لماذا يتوه عالمها وقد رفضت عودته إليها؟. يجافيها النّوم يقتلها

الأرق وينهكها التفكير جلست أخيرا على فراشها تواجه نفسها (ألازلت تحبينه بعد كلّ الذي حدث، أتريدين العودة إليه بعد كلّ ذلك الدّمار الذي زرعه في حياتك).

عاجزة هي عن الإجابة عاجزة عن القرار، عاجزة عن كرهه، عاجزة عن حبّه، عاجزة عن العودة إليه، عاجزة عن نسيانه، جنون يسكنها، تكاد تفقد عقلها.

**********

كان صهيب يخرج من بيت والدته بعدما زارها مودعا إياها، غدا موعد سفره بكت والدته وهي تحتضنه تعرف أن ابنها لن ينقذه من ضياعه سوى سفره، منذ طلق زوجته وهو في عالم آخر يركض دون وجهة ولا تعلم أين يذهب و أين يمضي وقته، لكنه منذ مدة انطفأ شيء جديد بداخله، لا تعرف ما الذي حدث له و لكن ابنها يضيع من بين يديها لذا لم تعترض على سفره أرادته أن يبتعد... أن ينسى... قلبها يتقطع على رحيله ولكن بعده أكثر احتمالا من رؤيته يموت أمام عينيها.

فجأة وقف متجمدا وهو يرفع عينيه ليصطدم بنظراتها التي تراقبه غير قادرة على إبعاد عينيها، تقدم كالمخدر منها واقفا قبالتها وهو يسحب نفسا عميقا كمن انقطع نفسه واستعاده لتوّه.

ـ صباح الخير سارة.

عاجزة هي عن الحركة أجابته في ذهول من يفاجأ بصوت قادم من ماضيه البعيد.

ـ صباح الخير.

ـ كيف حالك؟

ـ بخير وأنت؟

ـ أحاول أن أعيش، الأمر صعب جدا ومرهق ولا أحقق فيه نجاحا كبيرا.

خرج صوتها مرتعشا:

ـ سمعت أنك ستهاجر.

أمعن النظر في عينيها يبحث فيهما عن بريق أمل يعطيه القوة لمواصلة القتال من أجل استرجاعها، لكن نظراتها كانت خاوية لا تنبئ بشيء.

ـ سارة أريدك أن تعرفي أن كل ما فعلته كان لأنني عشقتك حد الوله، فارتضيت لنفسي عذاباتها كي تسعدي أنت، ما كنت أتصور أن يحدث كل الذي حدث ولو عرفت...

سكت عاجزا عن إكمال جملته والألم يستيقظ في عينيه الجريحتين.

ـ ماذا كنت فعلت؟

ـ كنت ابتعدت عنك قبل أن تحبيني كنت اختنقت بعشقي قبل أن أؤذيك.

ـ المشكلة يا صهيب أنني عشقتك قبل أن يعرف قلبي معنى الحياة، كنت طفلة لاتعرف من الدنيا سوى اللهو عندما غزا حبك قلبي، ما كان أحدنا قادرا على تجنب الآخر، كانت أقدارنا تسبقنا وتسبق خطواتنا.

أغمض عينيه يخفي ألمه وفتحهما ليقول:

ـ سامحيني سارة سامحي قلبي الأحمق الذي أضاعك وضاع بعدك، سامحي ضعف رجولتي التي لم تستطع الاحتفاظ بك، وعيشي سارة، عيشي بعدي، اتركي أخبار سعادتك تصلني لعلها تواسيني وتخفف إحساسي بفظاعة جرمي في حقك وفي حق نفسي، أنجبي ولدا يا سارة وسميه صهيب لأعرف أنك سامحتني

سكت من جديد و هو يرتشف تفاصيل وجهها الحبيب، هذا الوجه الذي نقشت صورته على قلبه كوشم يرفض أن يزول ثم نطق بصوت أجش متحشرج.

ـ وداعا سارة، وداعا يا حلما اغتصبته الأيام مني، تأكدي أن جرحك بداخلي لن تداويه أية امرأة أخرى، ولن يداويه الزمن، تأكدي يا سارة أنني عندما أموت ستحزن السماء على رجل مات في عشق امرأة.

تحرك بخطوات متثاقلة تاركا إياها مصدومة عاجزة عن الحركة، استدارت بصعوبة تراقب ابتعاده بينما روحها تلحق به و دموعها تنهمر بلا هوادة على وجنتيها.

عادت إلى البيت متناسية مشوارها و قد ذهب وعيها معه، ما إن رأتها والدتها تدخل باكية حتى ركضت إليها تضمها و تستعلم عن

سبب بكائها مرتعبة مما قد يكون أصاب صغيرتها، لكن سارة في خضم نوبة بكائها ونحيبها لم تكن قادرة على الإجابة أو على تفسير هذا الذي يحدث لها .

ـ بالله عليك يا بنيتي أجيبيني، ما يبكيك هكذا لا تخيفيني وأنت تعلمين أن قلبي ضعيف ولا يتحمل

تمالكت سارة نفسها مجيبة بكلمات متقطعة بين بكائها تحاول طمأنة والدتها.

ـ لا شيء ماما... لقد قابلت... صهيب.

ـ هل قال لك شيئا يبكيك؟

ـ لقد... ودعني... إنه مسافر... إلى الأبد ماما... بلا ... رجعة.

احتضنت أم سارة ابنتها وتركتها تبكي على صدرها وقلبها يتقطع على وحيدتها ابنتها الصغيرة كبرت قبل العمر بعمر، رأت من الأحزان ما هد شبابها وأنهك قلبها وروحها.

بعد أن هدأت صغيرتها قليلا سحبتها لتجلسها على الأريكة و تجلس معها.

ـ ما الذي يبكيك الآن أنت تعلمين أنه مهاجر وليس الأمر جديدا عليك.

سكتت سارة لا تجد ما تجيب به، هي نفسها لا تعلم سبب حالتها هذه.

واصلت أمها كلامها قائلة:

ـ يا ابنتي الرجل أخطأ واعترف بخطئه، صهيب ليس بالرجل السيء كل ما فعله فعله بتفكير رجل عاشق وبخبرة شاب لم يختبر الحياة جيدا ليعرف كيف ينتقي أحسن خياراته، هو ظلمك عندما طلقك ولكنه ظلم نفسه أيضا، وأنت أخطئت عندما رحت تعاقبينه بزواجك المتسرع بينما كنت تعاقبين نفسك، أنتما مازلتما شابين والحياة أمامكما، ما اختبرتماه معا يمكن أن يقوي علاقتكما لأن كل منكما عرف معنى العيش بدون الآخر اسألي نفسك هل أنت قادرة على العيش بدونه، إذا كان الجواب لا فامنحيه وامنحي نفسك فرصة المحاولة من جديد، لن تكون خسائرك أكبر مما سبق وخسرته وإذا كان الجواب نعم فابدئي تعلم العيش من دونه فالحياة لن تنتظرك.

قضت سارة نهارها تفكر في كلام والدتها تستعيد لقاءها بصهيب و كلمات وداعه لها حزنه الذي كان مرسوما على وجهه و يغلف صوته، شكله الذي تغير بعد أن سكنه الحزن و اليأس من عودتها له، حالتها بعد ذهابه، ما الذي يحدث لها لماذا بكته بتلك الحرقة، أكانت دموع وداع أخير أم دموع حسرة على ما توشك على فقده نهائيا. أضاع منها أم لم يزل في العمر بقيه لحبهما الذي كان، أكان وانتهى، يرتجي فقط النسيان أم أنه يرفض أن يموت رغم الوجع والأحزان، تذكرت سؤال والدتها (اسألي نفسك هل أنت قادرة على العيش بدونه، إذا كان الجواب لا فامنحيه وامنحي نفسك فرصة المحاولة من جديد، لن تكون خسائرك أكبر مما سبق وخسرته وإذا كان الجواب نعم فإبدئي تعلم العيش من دونه فالحياة لن تنتظرك)

هل هي قادرة على العيش بدونه؟ هل ما تعيشه منذ طلقها يمكن أن يسمى حياة؟ هل تستطعم هذه الحياة من بعده ؟ هل يستحق حبهما أن يمنح فرصة أخرى؟ هل يستحق صهيب أن تمنحه فرصة أخرى؟ عادت صور حياتهما معا قبل أن يحدث ما حدث ترتسم واضحة أمام عينيها ضحكاتهما عناقهما، سعادتهما، فرحهما نعم لقد عرفت معه معنى الحياة وبعده ما عاد لها حياة،

أهي قادرة على العيش بدونه؟ لا لقد توقفت حياتها يوم طلقها، أمازالت تحبه؟ وهل توقفت يوما عن حبه هي ما فعلت ما فعلته إلا لأنها تحبه، هي ما عرفت كل هذا الألم الذي لم يغادرها يوما إلا لأنها تحبه وتهيم به عشقا، لكنه يرحل إنه يستسلم كما فعلها ذات يوم، يرفض أن يحارب من أجلها، من أجل حبهما، ها هو يهرب من جديد.

بلا وعي منها وبغضب يتلبسها رفعت هاتفها تشكل الأرقام التي تحفظها عن ظهر قلب ليرن الهاتف من الجهة الأخرى مرة، مرتان، ثلاثة.

لم يعرف صهيب الرقم الذي غيرته بعد طلاقهما لكن إلحاح الرنة جعله يجيب أخيرا ليأتيه ذلك الصوت الهادر الذي وحده يملك القدرة على بث الحياة بداخله.

ـ أكان ذلك وداعا ، ما هذا الذي قلته لي صباحا أتريد السفر، تريدني أن أنساك وأن أسمي ابني على اسمك ولماذا قد أفعل ذلك لماذا أسمي ابني باسم رجل لا يملك إلا الهرب في كل مرة، لماذا اسميه باسم رجل لم يجد القوة و لا الجرأة على القتال من أجلي، هرب في المرة الأولى لأنه كان غير قادر على مواجهة عجزه

ويهرب الآن لأنني قلت له "لا"... ألا أستحق أنا أن يقاتل من أجلي ألا أستحق أن يبقى ليقاتل ضعفي وترددي أن يقتل ألمي وخيبتي فيه، ألا أستحق بعد الذي فعله بي أن يقضي عمره يسترضيني ويهزم غضبي، فلتعلم أنني لن أسمي ابني على اسمك عندما تتعلم كيف تقاتل من أجلي سأسميه باسمك.

أغلقت الاتصال تستشيط غضبا تاركة إياه مذهولا ينظر إلى هاتفه يحاول فهم هذا الذي حدث للتو أكانت هذه هي فعلا، أكيد هو لا يمكن أن يخطئ صوتها، ما هذا الذي قالته له، ما الذي كانت تعنيه اشتعل بريق الأمل في عينيه لينتفض قلبه من سباته الذي طال، إنها تطالبه بالقتال من أجلها ضحك مشدوها غير مصدق نعم إنها تعطيه خيطا للأمل من جديد، أتطالبه بأن يقاتل ضعفها وخيبتها فيه، يا إلهي هو مستعد ليقاتل العالم من أجلها ضحك مرة أخرى بصوت أعلى كالمجنون الذي أذهبت الفرحة عقله، لازالت تريده، هي لم تنسَ حبه هو مستعد لمقاتلة جبابرة الأرض وملوكها من أجلها، سيعاند قدره ويستجدي ربه لتكون له مرة أخرى، سيطالب بفرصته الثانية في الحياة سيطالب بحقه في الغفران وهي كانت ومازالت حياته وصك مغفرته الذي سيقاتل ليحضى به.

إرتدى ملابسه على عجالة وخرج قاصدا بيتها، كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساءً، عندما سمع كريم طرقا على الباب خرج يفتحه بينما تراقبه عيون زوجته وشقيقته ووالدته اللائي خرجن من غرفهن على وقع تلك الضّربات المستعجلة من طارق لا أحد ينتظره في هذا الوقت المتأخر من اللّيل.

فوجئ كريم بصديقه واقفا يبتسم ابتسامة عريضة ويقول له قبل حتى أن يسمح له بالدخول.

ـ جئت أخطب منك شقيقتك.

تفرس كريم وجه صديقه وهو يشك أنه فقد عقله أخيرا بعد مقاومة دامت أكثر من سنتين ها هو يستسلم للجنون

بينما كانت عيون أربعة مذهولة تستدير نحو سارة الواقفة هناك مبتسمة في ارتباك.

سحبه كريم من ذراعه متوجسا خيفة وهو يقول:

ـ أدخل سنتكلم بالداخل.

عندما جلس الرجلان راح كريم يسأل صديقه.

ـ هل أنت بخير؟

أجاب صهيب مبتسما كطفل صغير.

ـ لم أكن يوما أحسن حالا من الآن.

ـ أتعلم كم الساعة الآن؟

انتبه صهيب فجأة، انسحبت ابتسامته وهو ينظر لساعته ليدرك أن الوقت تجاوز العاشرة ليلا.

ـ أنا آسف لم أدرك أن الوقت قد تأخر لكنك تعلم أنني مسافر غدا وليس لدي الوقت الكافي.

ـ الوقت الكافي لماذا؟

ـ للزواج بسارة قبل السفر.

أمعن كريم النظر في وجه صديقه يحاول التأكد من حالته.

ـ صهيب أنت تعلم أن سارة قد رفضت العودة إليك.

عادت ابتسامته للظهور مجددا:

ـ كان ذلك قبل أن أودعها، الآن هي تريدني أن أقاتل من أجلها وأنا مستعد للقتال.

بدأ الخوف ينتاب كريم وهو لا يفهم تصرفات صديقه.

ـ صهيب أرجوك عد إلى رشدك أي قتال هذا الذي جئت تحدثني عنه في جوف الليل.

ـ أرجوك كريم إذا كان لصداقتنا عندك معزة اسألها، قل لها فقط أن صهيب جاءها خاطبا، قل لها أنها إذا رفضت سيأتي لخطبتها كل يوم من أيام عمره حتى تسامحه وتقبل به من جديد.

عندما وجده لا يتحرك من مكانه أضاف:

ـ أرجوك صهيب بحقّ صداقتنا أخبرها ما قلته لك للتوّ.

وقف كريم مشفقا على صديقه يتجه إلى خارج الغرفة أين وجد النساء الثلاثة واقفات وقد سمعن الحديث كله موجها كلامه لسارة.

ـ ما ردك على كلامه؟

أحنت رأسها في خجل وقد علت وجنتيها حمرة خفيفة وهي تقول:

ـ أنا موافقة.

تلقتها والدتها في حضنها، بينما ترتمي زوجة شقيقها على ظهرها تحتضنها أمام عيون كريم المندهشة وهو الذي كان يشفق على صديقه منذ لحظات قليلة بدأ الآن يشفق على نفسه من هذا الجهل.

دخل متخذا مكانه الذي غادره جالسا بتأنٍ أمام قلق صديقه ولهفته على سماع ردها الذي يحمله له

ـ إنها موافقة.

انتفض صهيب من مكانه يحتضن رفيق عمره وهو يقول:

ـ شكرا لك يا صديقي.... الحمد لله... وأخيرا.

ـ اجلس الآن ودعني أفهم هذا الذي حدث ما الذي غير رأيها.

جلس صهيب ينظر إلى صديقه والفرحة تقفز من عينيه.

ـ لقد التقيتها صباحا صدفة وأنا أودع والدتي طلبت منها أن تسامحني على ما فعلته بنا... يبدو أنها فعلت

ـ ولم تكن قادرا على القدوم لخطبتها صباحا عندما سامحتك.

تنحنح صهيب محرجا من صديقه وهو لا يعرف ما يجيبه به ثمّ قال:

ـ لقد أرسلت لي برسالة مساءً بأنها سامحتني.

كان يدرك أنه يكذب على صديقه لكنها كانت كذبة بيضاء لحفظ كرامة سارة ومراعاة لصديقه ما كان بإمكانه أن يخبره بتفاصيل المكالمة.

ـ وما الذي تنويه الآن وأنت مسافر غدا؟

ـ أريد أن أتزوجها قبل سفري.

ـ هل أنت مجنون سفرك غدا عند السادسة مساءً.

ـ أعلم ذلك، إنه وقت كافٍ.

ـ لا تجعلني أفقد عقلي معك يا صهيب موعد لتسجيل العقد في البلدية لن يمنح لك إلا بعد أسبوع كأقل تقدير بعدها يجب أن يقرأ الإمام فاتحة زواجكما، ناهيك عن الأوراق الطبية التي عليكما إحضارها قبل تسجيل العقد

ابتسم صهيب و هو يقول:

ـ أنت تنسى أن زوج شقيقتي طبيب في المستشفى وبإمكانه إنهاء الوثائق الطبية غدا، عندما عقدنا قراننا في المرة الأولى اكتشفنا

أن موظف البلدية كان صديق شقيقي، وأنت ستتدبر أمر الإمام، قبل السفر سنكون متزوجان شرعا ورسميا.

اتسعت عينا كريم دهشة وهو ينظر إلى صديقه.

ـ يبدو أنك حسبت أمورك كلها قبل القدوم إلى هنا ولكنك تنسى أن سارة ليست جاهزة للسفر معك ولا تملك الفيزا.

أصيب صهيب بالاحباط وهو يتذكر أهم شيء في موضوع السفر، نظر إلى كريم والخيبة تملأه

ـ معك حقّ....

عاد ورفع رأسه وهو يستدرك:

ـ على الأقل أريد أن أسافر وهي زوجتي، لنبدأ في تحضير وثائق لحاقها بي.

ـ لا أعلم يا صهيب أنت تضعني في الضيق ولا أعلم حتى إن كانت سارة ستوافق على هذا الاقتراح.

انتفض صهيب مبتسما.

ـ اسألها.

وقف كريم وهو يقول...

ـ وهل لي خيار الرفض أعرف أنك لن تتركني حتى أفعل.

ما إن خرج من الغرفة حتى وجد شقيقته تجيب دون أن يسألها.

ـ موافقة.

أجاب وهو يضرب يدا على يد.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ألم يكن ممكنا تجنيبنا هذا الجنون لو وافقت قبلا.

عاد إلى الغرفة وهو يقول:

ـ أنتما الاثنان مجنونان، إنها موافقة.

**********

في الغد كان السعي على قدم وساق دبرت الوثائق الطبية، سجل عقد الزواج في البلدية وقرأ الإمام الفاتحة معلنا زواجهما أمام الله وأمام أفراد عائلتهما الحاضرين مجلس عقد القران، تعالت الزغاريد في البيت معلنة عودة الفرح إلى قلب العاشقان اللذان أضناهما البعد والفراق.

أخذ صهيب عروسه إلى الفندق الذي حجز فيه لم يكن الاثنان يملكان سوى ساعتين من الزمن قبل موعد سفر صهيب قضياها في إرواء شوقهما الذي طال.

بعد أكثر من ساعة كانت تتكئ على صدره وهو ممدد على فراشهما يضع ذراعا تحت رأسه ويحتضنها بذراعه الأخرى، يمرر شفتيه على شعرها ويستنشق رائحته العطرة.

ـ لا أعرف كيف بإمكاني الصبر من جديد على فراقك لولا أن الشرط الجزائي في عقد العمل كبير لما سافرت بعد أن وجدتك أخيرا.

ـ إنها أسابيع قليلة وسألحق بك.

رفعت رأسها إليه مبتسمة وهي تضيف.

ـ لقد صبرنا أكثر من سنتين سنتجاوز هذه الأسابيع كما أنه هذه المرة لدينا الأمل رفيقنا.

سكتت برهة ثم أضافت:

ـ هذا يذكرني بسفرتك الأولى بعد اعترافك لي بحبك.

نظر إلى عينيها وقد غطت غمامة من الحزن عينيه وهو يقول:

ـ لا أعلم إن كنت يوما سأسامح نفسي على ما فعلته بك، كل الذي....

وضعت أناملها على شفتيه وهي تقول:

ـ أششش أنا سامحتك وهذا يكفي لتسامح نفسك، أنت أخطأت وأنا أيضا لكننا لن نبقى أسيرين لهذا الماضي سنكون سعيدين حبيبي لأننا نستحق السعادة سنترك هذا الماضي وراءنا وسيعيش أحدنا ليسعد الآخر، أريدك أن تدللني كما كنت تفعل، أريدك أن تحبني بقلب رجل أنا وحدي أنثاه، و بروح عاشق أنا في الدنيا منياه

ابتسم مبددا غمامة عينيه وهو يسألها:

ـ و كيف ستحبينني أنت؟

وضعت قبلة على خده وهي تقول:

ـ بدلال امرأة لا ترى أنوثتها إلا بين يديك.

قبلة أخرى على خده الأيسر.

ـ بغيرة امرأة تريدك دنياها.

قبلة ثالثة على جبينه...

ـ بوعد عاشقة أن تكون أنت دنياها.

قبلة على ذقنه.

ـ بجنون أنثى ستفقدك عقلك لو فكرت في تركها.

سحبها من كتفها إلى الوراء حتى يرى وجهها وهو يقول:

ـ أنا مجنون مذ عرفتك، مجنون لا يريد عقله، مريض لا يريد أن يشفى، حي لأنك حبيبتي، ميت لو تركني قلبك

وضعت جبينها على جبينه تغمض عينيها رافضة روحها تخيل الأمر:

ـ حتى عندما لم نكن معا لم يستطع قلبي تركك، لا تتركه أنت فقط لأنه يختنق في بعدك

انتفض قلبه وهو يقول:

ـ آه لو تعلمين كم يوجعني حبك.

ـ لا أريد لحبي أن يوجعك أريد أن يكون سبب سعادتك.

أخذ صهيب وجه حبيبته بين كفيه وعيناها البراقتان تتابعانه.

ـ هو كذلك يا قلب القلب لكنه موجع أيضا لأنه أكبر من أن تتحمله روحي.

وضعت رأسها على صدره وهي تقول بوعي تدركه الآن على وقع كلماته.

ـ أنت محق، الحب موجع عندما يكون أكبر من وسع الروح، بكل الفرح الذي يحمله لكنه يظل موجعا لأن من نحبهم يسكننا دائما الخوف عليهم وعلى فقدانهم.

رفع رأسها إليه مرة أخرى وهو يقول مبتسما:

ـ لكنني سعيد جدا بهذا الوجع و لو خيروني ما اخترت إلا حبك الموجع.

ابتسمت له ودموع تتلألأ في مقلتيها.

ـ و لو خيروني بين حب آخر وبين وجعك لاخترتك أنت كما أنت.

أحنى رأسه يقبل شفتيها ينهل من شهدهما غير مصدق أنها عادت إلى حضنه، عادت لتستكين هادئة بين يديه قريرة في جنبات قلبه، بينما روحها تحلق أين تأخذها روحه إلى عالم كانت تسكنه يوما، واشتاقته حد الوجع حتى عاد هو و أعادها إليه.

**********

في المطار كان صهيب يودع شقيقه و صديقه كريم، أمسك يد زوجته متنحيا جانبا مبتعدا عن أخيه وصهره

ـ سأشتاق إليك حد الهلاك أسرعي بتحضير وثائقك، سأرسل لك الوثائق اللازمة، لا تتركيني أنتظر كثيرا وإلا تركت كل شيء وعدت إليك.

ـ أنا أكثر شوقا منك للحاق بك.

احتضن يديها الصّغيرتين بين كفيه العريضتين لا تغادر عيناه عيناها.

ـ تذكري أني أهيم عشقا بك يا قلب القلب.

ابتسمت في خبث ودلال وهي تقول ذكرني بها كل ليلة عندما تتصل بي فأنا امرأة أعاني من النسيان.

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

ـ كل النسيان مسموح به إلا أن تنسي أنك تحبينني.

أشرق وجهها وهي تجيبه:

ـ أنا أنسى الأشياء التي تعلق في الذاكرة حبك عالق في القلب لا يمكنني أن أنساه.

أخذ نفسا طويلا...

ـ كيف يمكنني الآن تركك وأنت بهذا الوهج وهذه الروعة.

سحبت يديها اللتان كانتا لا تزالان ترقدان في كفيه وأحاطت بهما وجهه.

ـ سأكون بين ذراعيك قريبا جدا لأن شوقي لك لن يصبر علي كثيرا.

أغمض عينيه وقد ارتبكت أنفاسه بينما يعلو صدره ويهبط.

ـ إذا واصلت هكذا فجدي من يركب مكاني في هذه الطائرة.

ـ حبيبي أنظر إلي، أريد أن أرى عينيك.

فتح عينيه ينظر إليها مغالبا لهفته عليها.

ـ قريبا جدا، أعدك.

أخذها في حضنه غير قادر على منع نفسه وهو يهمس في أذنيها مرة بعد مرة.

ـ مشتاق أنا من الآن، مشتاق، مشتاق.....

**********

بعد أن لحقت سارة بصهيب واستقر بهما الحال بدأت رحلتهما الجديدة من أجل العلاج محاولة الحمل عن طريق تقنية الأنابيب، تطلبت الكثير من الركض والسفر والمصاريف الكبيرة، كان الحب سلاحهما فيها وما عانياه قبلا رادعا لهما عن اليأس، وكان الأمل في الله هو ما يتعلقان به، كانت تستيقظ ليلا لتجد صهيب يصلي في جنح الليل تراه يرفع يديه متضرعا لله و كانت تعرف دعواته دون أن تسمعها، كثيرا ما كانت تنضم إليه ليصلي بها ركعات كل منهما يناجي ربه في صمت و كل منهما يعرف أن مناجاته هي نفسها مناجاة رفيقه. رغم الأمل الذي طال عليه الوقت و لم يتحقق، إلا أنها كانت تعيش في دنيا من السعادة أغرقها فيها صهيب بحبه و شوقه عاد يعاملها كصغيرته المدللة،

كحبيبته المنشودة، كحلمه الذي كاد يضيع من بين يديه وكانت ترد له الحب حب والشوق شوقان.

**********

عائدان من عند الطبيب، دخلا إلى شقتهما والصمت يلفهما لا أحد منهما كان قادرا على قطع هذا الصمت الثقيل الذي كان يجثم على قلبيهما، تقدمته إلى غرفة نومهما تغير ثيابها بينما دخل هو إلى الحمام وأطلق الماء الساخن على جسده عله يريحه من هذا العبء الذي أثقل كاهله، بعد وقت قصير خرج من الحمام متجها إلى الغرفة ليجدها هناك تطوق قدميها المطويتان بذراعيها وتضع رأسها على ركبتيها، آلتمه رؤيتها هكذا وهو يعرف أنه سبب حالتها هذه وليس بيده أي شيء يفعله اقترب منها وهو يشد على قلبه الموجوع، جلس أمامها على السّرير يمرر كفه على شعرها، ما إن أحست بلمسته حتى رفعت رأسها إليه محاولة الابتسام كانت تظنه في الحمام ولم تكن ترغب أن يراها هكذا وهي تعرف أنه يلوم نفسه على حالتهما وهي منذ عودتهما لبعض كانت تخفي شوقها لهذا الطفل الذي يعاندهما غير راغب في المجيء، هذه ثاني محاولة لهما، لكن الحمل لم يحدث في المرتان في كل مرة كانا يتأملان ، ينتظران بشوق و خوف ، يتلهفان إلى موعد

الطبيب ويخشيان الخيبة. مرتان، و في كل مرة كانت الخيبة، في المرتان لم تنجح نطفاته المزروعة بداخلها في التمسك ببويضاتها والنمو داخل رحمها، مرتان وجسده يخذله ويخذلها، وهي ترى في كل مرة كسرته التي يعانيها.

ابتسمت مرغمة وهي ترى حزنه على وجهه وجاهدت نفسها لتخرج كلمات ثابتة يحتاجها هو في هذا الوقت:

ـ لا بأس حبيبي سنحاول مجددا.

سكتت غير قادرة على إضافة كلمة واحدة وهي تغالب غصة في حلقها تكاد تفضحها، لكنه كان عالما بحالها دون أية كلمة منها وحتى لو ادعت لا مبالاتها، هو يعلم أنها تشتاق وأنها تحلم وأنها تعاني من كسرة الأمل الذي يخذلهما لثاني مرة كان يريد أن يطمئنها أن يؤكد لها أن الحمل سيحدث إن آجلا أو عاجلا، كان يريد أن يجد كلمات تبعد عنها هذا الحزن، لكنه وجد نفسه غير قادر على قول شيء سوى كلمة واحدة كانت الآن ملاذه وسلاحه:

ـ أحبك.

قالها وسكت من جديد بينما كان هو هذه المرة من يقاوم الغصة التي تكاد تخنق قلبه قبل صوته .

ارتمت في حضنه وهي تقول:

ـ وهذا يكفيني لأحاول مرة بعد مرة، أعلم أن الله يختبر صبرنا وحبنا وأنه لن يضيعنا، سيأتي يوم حبيبي نتذكر فيه هذه اللحظات الصعبة ونحكيها لأطفالنا سنحكيهم كم انتظرناهم ونحكيهم كما صبرنا من أجلهم

رفعت رأسها تنظر إلى عينيه الحزينتين وهي تضيف مازحة مبتسمة.

ـ سنذلهم بتذكيرهم بكل ما عشناه من أجلهم.

فلتت منه ابتسامة صغيرة وهو يقول:

ـ أولادك سيعانون منك أيتها الاستغلالية.

أجابت مبتسمة:

ـ وأنت ستفسدهم بدلالك.

ـ لو كانت بنتا سأدللها كدلالي لوالدتها.

انتفضت تدعي الغيرة.

ـ إذن لن أنجب إلا الذكور، لا أريد لأحد أن يشاركني دلالك.

فلتت منه ضحكة صغيرة.

ـ ستكتبين في وصل الطلبية الصنف المطلوب "ذكر"

ارتعش قلبها لرؤية ضحكته المعجونة ببقايا حزن يصارع لإخفائه.

ـ سأبقى صغيرتك حتى لو جاءت ابنتك تزاحمني؟

أجابها والحب يرتسم ويلون ملامح وجهه.

ـ ستبقين صغيرتي حتى وأنت عجوز بشعر أبيض وظهر مقوس و فم رحل عنه سكانه البيض.

انفجرت ضاحكة لوصفه...

ـ تحدث عن نفسك، أنا لن أسمح للزمن بأن يسلب مني شبابي، ألا تعرف أنني مهما كبرت سيبقى عمري ثلاث وعشرين سنة.

هذه المرة لم يستطع منع ضحكته العالية وهو يتخيل صورتهما بعد مرور سنوات.

ـ ويلي أنا من سيكبر، ليقاتل الشباب اللذين يتقربون منك ومن ابنتك ظانين أنكما شقيقتان.

أخذت وجهه بين يديها وهي تجيبه متدللة عاشقة حتى النخاع.

ـ ليس هناك ما تخشاه، سأظل أنا عاشقة لك وحدك لا أرى من الرجال غيرك.

ثم اقتربت واضعة قبلة طويلة على شفتيه النائمتان حتى حركهما شوقها وأيقظهما إلحاحها فراح يلتهم قبلتها ويزيد في حضنها، متناسيا كسرته وخيبتها.

**********

كانت سارة تتجول بين الأروقة تختار ملابس شتوية جديدة لها، عندما اصطدم بقدميها جسم صلب، انتفضت تنظر إلى الأسفل، لتفاجأ بطفل صغير لا يتجاوز السنتين يحيط بقدميها وينظر إليها في ابتسامة ملائكية جعلت قلبها يقفز من مكانه ليحط على وجه

هذا الفتى، رفعت عينيها تبحث عن شخص ينتمي إليه هذا الصغير لكنها لم تصادف أية نظرات، أحست بقبضة يده الصغيرة تشد على ملابسها، فعادت بناظريها إليه لتسمعه يقول كلمات غير مفهومة و هو مازال يبتسم ذات الابتسامة الملائكية، نزلت بجسمها إليه تمسكه من ذراعيه بلطف محاولة عدم إثارة خوفه.

ـ أين أهلك أيها الصغير؟

ـ هنات (هناك)

ـ أين هناك؟ لابد أن أمك قلقة عليك.

نظق الصغير بكلمات ضاعت نصف أحرفها، لم تفهم منها سارة شيئا.

ـ ما اسمك حبيبي؟

ـ ذاد.

كانت سارة تحاول ربط أحرف الصغير مع الأسماء التي تعرفها عندما سمعت صوتا ذكوريا جهوريا ينادي (جاد)، التفتت إلى حيث مصدر الصوت لتجد رجلا يقترب منها ينظر إلى الفتى وهو يقول:

ـ جاد كم مرة يجب أن أفهمك ألا تتحرك من أمامي.

مد الرجل كفه العريضة لتلتقط كف الصغير، لكن هذا الأخير فاجأه بالارتماء في حضن سارة وابتسامته لا تغادر وجهه، لولا أنها أمسكت نفسها وهي تعود إلى الوراء لكانت سقطت أرضا هي وجاد، فاجأها حضنه الصغير الذي حمل لها دفئا كبيرا أيقظ بداخلها شوقا أكبر تجاهد منذ سنوات لكتمانه وعدم إظهاره، ترقرقت الدموع في عينيها وهي تشد الفتى إلى صدرها في رقة محاولة السيطرة على مشاعر الأمومة التي انتفضت بداخلها فجأة، انسحب الصغير من حضنها واضعا قبلة على خدها، ثم مد يده للرجل الواقف بانتظاره وانصرف من أمامها، ملوحا بيده كحلم جميل سكنها لحظات قليلة من الزمن وغادرها ليترك بداخلها حسرة كبيرة وألما يستيقظ بداخلها، رفعت رأسها تتبع خطوات الصغير ودمعة تنساب على خدها لم تستطع منعها لتصطدم بنظرات أخرى كانت تراقبها منذ مدة، كان هو صهيب قد جاء يقلها للمنزل، ليراها في هذه اللحظات تعاني هذا الفقد الذي تتحمله بسببه، عندما رآها تحتضن الطفل، كان ذلك أجمل منظر رآه في حياته كلها ولكنه كان أيضا أقسى منظر، خاصة وهو يرى الآن دمعتها وألمها وحسرتها، ما إن رأته حتى وقفت

مسرعة تمسح دمعتها وترسم ابتسامة على وجهها لكنها علمت أنه رأى كل شيء، رأى شوقها، حضنها، ألمها.... ودمعتها

أسرعت إليه محاولة جعل الأمر يبدو عاديا، لكنها عجزت عن قول كلمة واحدة ولم يكن هو قادرا على قول كلمة تساعدها، علقت ذراعها بذراعه وتحرك الاثنان في خطوات متثاقلة وصمت مطبق كان يقول عن حزنهما الشيء الكثير.

في الأيام التي تلت كان صهيب صامتا بشكل مخيف، تذكرت سارة ذلك الوقت الذي عرف فيه بعلته فصمت كأنه يعاقب نفسه بينما كان يعاقبها هي، عاد إلى ذلك التيه الذي عرفه وقتها، لم يقربها منذ أكثر من أسبوع وكانت هي تعلم أن ما رآه ذلك المساء هو سبب بعده اليوم، خشيت أن يغلبه صمته أن يطغى عليه يأسه، تركته يستعيد قوته ولكنه كان عاجزا عن المبادرة، سكنته صورة وجهها وذلك الصغير في حضنها ورأى بعينيه ما كانت تخفيه دائما، كان يعرف ولكنه عندما رآه، قرأ حجم ما تخفيه من معاناة وألم وشوق وعاد الضعف يسكنه عاد إحساسه بالعجز يوجعه ويكسره فما عاد قادرا على لمسها.

كانت تستلقي أمامه ليلا، تناظره بينما يقلب القنوات في اضطراب غير قادر على الاستقرار على شيء يتابعه بينما يصارع إدراكه بنظراتها التي تلح عليه، أدركت أنه لن يستسلم، إحساسه بعجزه عاد ليطغى على كل إحساس آخر عنده، فجأة أحس بيد تخطف منه جهاز التحكم، التفت ليراها تنظر إليه في ابتسامة مغرية. أغمض عينيه مانعا نفسه من رؤية جمالها في ثوب نومها الأحمر كدعوة صريحة، كانت زوجته صورة مجسدة لمعنى الغواية وكان هو عاشق ضعيف إيمانه بالفضيلة، سمع صوتها المتهدج يقول:

ـ كان اسمه (جاد)

فتح عينيه دهشة غير مستوعب لما تتكلم عنه أو من، عندما سمعها تواصل:

ـ ارتمى فجأة في حضني وقبلني على خدي ومضى، لا أعلم لما فعل ولكنني ضعفت لأني رأيت فيه ابننا القادم لأن ابننا سيأتي...

صمتت قليلا تنظر إلى ردة فعله تنتظر كلمة منه لكن لا شيء، فقط الصمت.

ـ ذلك الفتى لم يغير شيئا، أنا أشتاق منذ أحببتك لطفل منك، ولا أريده من غيرك، طفلك أنت هو ما سيسعدني وأنت تعلم أن هذه

هي الحقيقة، لقد تركتني ليكون لي طفل من غيرك ولكنني رفضت، طفلي سيكون منك وليس من أي رجل آخر.

أغمض عينيه متألما وقد مرت على ذكراه مرحلة صعبة من حياتهما تناسياها مذ عادا لبعضهما، فتح عينيه وهو يحس بكفها تمر على وجهه ليسمعها تردف قائلة:

ـ لقد تعذبنا كثيرا لنصل اليوم إلى هنا، لا أريدك حبيبي أن تنتكس لأنك تفهم الأمر كما يصوره لك إحساسك بالضعف، أنت عندي أقوى من كل الرجال وأعظم من أي رجل آخر، أنت قوتي وسندي وسبب سعادتي... حزنك الذي أقرأه على وجهك كفيل بقتلي، أنت تعلم أنني يمكن أن أموت لو تركتني، أنت الآن معي لكنك تتركني لأنك بعيد عني...

التقط صهيب كفها يقبل باطنه وهو يغمض عينيه ثم ينظر إليها محاولا السيطرة على أنفاسه المضطربة

ـ هل أخبرتك يوما كم هو موجع حبك...

ـ و أخبرتني أنك تختاره على وجعه، على أي حب آخر، وأخبرتك أنني اخترتك أنتَ كما أنت.

ساعتها فكت كلماتها عقدته وضمها يقبلها ويبثها حبه ووجعه، ما أصعب أن يسكن الرجل حب مصنوع من الوجع، شوق ممزوج بالضعف، رغبة مغلفة بالعجز، ما أصعب قهر الرجل العاشق، تلك الليلة كانت ليلة من ليالي عمرهما كان حبهما فيها انتقاما من ظروف حاولت قهرهما، لكن حبهما كان ينتصر لهما في كل مرة وهاته المرة أكثر من أي مرة خلت.

**********

تزينت بأحلى فساتينها، أعدت الطعام الذي يحبه وانتظرته على أضواء الشموع الخافتة تريد أن تفاجئه بعشاء رومانسي، بمجرد دخوله بدا عليه الانبهار بشكلها بابتسامة بلهاء على وجهه، لم تتمالك نفسها وانفجرت بالبكاء أسرع إليها خائفا وجلا.

ـ لماذا تبكين حبيبتي.

زاد بكاؤها وتعالت شهقاتها غير قادرة على قول شيء.

أي تاريخ نحن اليوم، أتراه نسي عيد ميلادها، لا لقد مر منذ زمن قصير، أهو عيد زواجهما، لماذا عقله الأحمق يتخلى عنه في هذه اللحظات.

ركض إليها يأخذها بين ذراعيه وجلا متلهفا.

وعدت نفسها أنها ستقاوم وعدت نفسها ألا تخبره حتى ينتهي العشاء لكن ها هي تنفجر باكية مخلة بكل وعودها، أحست بتأخر عادتها الشهرية وآلام متكررة أسفل بطنها ذهبت لزيارة الطبيب، لم تصدق نفسها والطبيبة تخبرها أنها حامل، ردت عليها أن ذلك مستحيل، هي وزوجها يحاولان منذ مدة عن طريق تقنية الأنابيب والأمر لا ينجح فكيف تحمل الآن بالطريقة العادية وكأن الأمر في غاية البساطة، تأكدت الطبيبة مرة بل ومرات أعطتها فحوص دم وتحاليل لإجرائها أخفت الأمر عنه بصعوبة، غير مصدقة رغم الأمل الذي كان يتراقص بداخلها ورغبتها في التصديق، إلا أنها كانت تخشى عليه من خيبة أمل جديدة، اليوم عادت من عند الطبيبة التي أكدت لها حملها، تتذكر عدم تصديقها وهي تردد (غير معقول، هذا غير ممكن) لكن الطبيبة أسكتتها بجملة واحدة.

(إن الذي خلق آدم من تراب قادر أن يخلق بداخلك هذا الجنين بقوله "كن فيكون")

صمتت سارة بعدها وهي تدرك أنها تعيش معجزة بعد كل هذا الصبر ومن وقتها وهي تبكي فرحا وتصلي شكرا لله.

ـ لماذا تبكين حبيبتي؟ أنا آسف لأني نسيت أنت تعلمين أني أحمق لا أجيد التعامل مع التواريخ...

ابتسمت من بين دموعها كم تعشق هذا الرجل، إنه يعتذر لها دون حتى أن يعرف ماذا فعل، أجابته بصوت متقطع باكٍ...

ـ أنا.. حا... مل

ألجمت الصدمة لسانه، اتسعت عيناه، وهو لا يستطيع التلفظ بكلمة، أخبرته القصة وأكدت له الخبر اليقين بقي صامتا يحاول استيعاب ما حدث، أيعقل بعد كل هذا العناء أن يأتي الأمر بهذه البساطة، ضمها إليه يحمد الله. كل ما كان قادرا عليه هو ضمها إلى قلبه والبكاء بدموع صامتة لم يستطع منعها بل لم يحاول حتى وكأنه لأول مرة في حياته يحب دموعه ولا يخجل بها.

كان حمل سارة يدخل الشهر الخامس سعيدة هي مترقبة، تنام ليلتها لتستيقظ على إحساسها بالبلل، فتحت عيناها تنظر إلى الفراش لتجد بقعة كبيرة من الدم تلطخ بياضه، انقبض قلبها وتسارعت دقاته ، بدأ جسدها في الارتعاش وهي تقاوم الحقيقة التي كانت تتسرب إلى داخلها الآن، تسكنها لتقتل داخلها فرحة طالما انتظرتها فرحة كانت تكبر بداخلها يوما بعد يوم، هذا النزيف لا يعني إلا شيئا واحدا، لقد أجهضت حملها، وضعت يدها على فمها تحاول كتم شهقاتها ودموعها تتهاطل هطول المطر الغزير، بينما تكاد روحها تنطفئ من شدة ألمها. لم يكن الألم ألما جسديا، كان ألما روحيا، كانت تحس أن روحها تتسلل منها مغادرة، انتبهت على كفين يهزانها هزا.....

ـ اهدئي حبيبتي أرجوك اهدئي.

تركت العنان لصوتها وهي تبكي حلمها الذي ينزف أمامها الآن، بينما كان صهيب يضمها إلى صدره وبكاؤها يقطع نياط قلبه، ضاع الحلم، مرة أخرى تخذلهما الحياة بسحب هدية قدمتها لهما لتنتزعها بعد أن تعلق بها كليهما وقبل حتى أن يفتحاها.

يجاهد للسيطرة على نفسه وعلى وجعه وتمزق روحه وهو يلبسها ثيابها، ثم يحملها ويضعها في السيارة لينطلق بها سريعا إلى المستشفى...

كانت الطبيبة تقيس دقات قلب الجنين وتتفحص الجنين عن طريق جهاز السونار بينما لا تتوقف سارة عن البكاء وصهيب يحتضن كفها في ألم صامت، رفعت الطبيبة صوت الجهاز، ليعلو في المكان صوت نبضات قلب وتصرح الطبيبة...

ـ النبض مازال موجودا، لم تكن حالة إجهاض.

ليعود النبض إلى قلبين مترقبين ويشتد بكاء سارة فرحا هذه المرة بينما يحتضنها صهيب حامدا الله الذي لم يخيب رجاءه.

قدمت الطبيبة توصياتها الشديدة بضرورة الراحة والاستلقاء لمدة شهر كامل مع إعطاء سارة حقن لتثبيت الحمل وضرورة الفحص الدوري والمتابعة الدائمة....

مر الشهر على سارة صعبا وهي مستلقية على فراشها يمنعها صهيب ـ الذي حصل على إجازة ـ من الحركة إلا للحمام والصلاة....

كان يحيطها بحبه المتدفق وخوفه الذي يجاهد على إخفائه، بينما تراه هي في عينيه فاضحا قلقه، فتزداد تعلقا بهذا الرجل الذي أسر قلبها وسكن روحها...

**********

بعد أربعة أشهر كان يجلس أمام زوجته الراقدة على سرير المستشفى ينتظر بشوق استيقاظها، كانت العملية القيصرية طبيعية، لكنه كاد يفقد عقله قلقا عليها وهو ينتظر بالخارج وحده، لا صديق ولا فرد من العائلة يواسيه، إلا اتصالات هاتفية متكررة من عائلته وعائلتها كانت تزيد في قلقه وتوتره وهو يحسب الدقائق قد تحولت لساعات في قاموس زمنه، حتى خرجت الطبيبة أخيرا لتبشره بنجاح العملية وتبارك له، لقد أصبح "أبا" أخيرا بعد كل هذا العناء تحقق حلمه وحلم زوجته لكنه في تلك اللحظة بالذات كان متلهفا لرؤية زوجته والاطمئنان عليها.

فتحت سارة عينيها بتثاقل لتجده جالسا أمامها يترقب حركاتها.

ـ صباح الخير حبيبي.

ابتسم وهو يجيب.....

ـ مساء الخير يا قلب القلب نحن في المساء.

أدارت رأسها يمينا وشمالا كمن يبحث عن شيء ثم سألته.

ـ هل رأيتهما؟

اتسعت ابتسامته وأشرق وجهه.

ـ نعم، من بعيد فقط سأضغط الزر لكي تحضرهما الممرضة.

بعد دقائق معدودة كانت ممرضتان تدخلان تحملان رضيعان سلمت واحدة الطفلة لصهيب، بينما وضعت الأخرى الطفل الثاني في حضن سارة وغادرتا الغرفة.

شهقت سارة وهي تتلقى طفلها بين يديها بينما وقف صهيب وجلس أمامها على سريرها ملتصقا بها...

انسابت دموعها على خديها غير قادرة على منع نزولها وهي تنقل ناظريها بين فلذتا كبدها.

ـ يا إلهي ... صهيب ما أجملهما.

ـ إنهما كحلم ينزل من السماء.

رفعت سارة وجهها إليه متوسلة.

ـ حبيبي أريد أن أطلب منك طلبا.

ـ كل ما تريدين يا قلب القلب.

ـ أريد أن نعود إلى الوطن، أريد أن يتربى طفلينا في كنف عائلتينا، أريد أن يعرفا دلال الجدة وعزوة الأخوال والأعمام، أن ينعما بدلال العمات.

ابتسم صهيب وهو يضع قبلة على رأس أم طفليه.

ـ سنعود حبيبتي، أشهر قليلة وينتهي عقدي ولن أجدده سنعود إلى الوطن يا قلب القلب.

**********

## الخـــاتـــمـــــة

كانت الجدتان تجلسان في وسط الدار الواسعة، كل تحمل حفيدا من حفيديها غير مصدقتين أن سارة وصهيب عادا نهائيا لأرض الوطن ومعهما فلذتا كبديهما، بينما يقف صهيب هناك يحيط خصر زوجته التي تتكئ عليه بظهرها، ينظران إلى هذه اللوحة الرائعة غير قادران إلى الآن على تصديق ما حدث، رفعت سارة وجهها تنظر إلى زوجها تبتسم ابتسامة عريضة وهي تسمعه يقول:

ـ أكنت تصدقين أننا سنقف هذه الوقفة يوما.

جاءه صوتها مرتعشا متأثرا:

ـ نعم، رغم كل ما مر بنا أنا لم أيأس من رحمة الله، ربما في لحظة من الزمن عندما كنت مجروحة أغمضت قلبي عن الرؤية، لكنني علمت منذ البداية أنك قدري وأننا سنصل حتما إلى هنا يوما.

وضع صهيب ذقنه على كتف زوجته يقول وهو يتابع حركات طفليه.

ـ أعترف أنني في البداية كنت جاهلا وقانطا ولم أستطع تقبل الأمر لكنني أعلم الآن أن رحمة الله واسعة أدارها إليه يواجه عينيها رافعا وجهها إليه بسبابته.

ـ وأعرف أني حضيت بامرأة كسرت ضعفي وحولته قوة، تقبلت عجزي وصنعت منه تحديا، أعرف أنني محظوظ بامرأة جعلت مني رجلا صلدا متقبلا لامتحان القدر، قادرا على مواجهة الحياة بمرها وحلوها، لأني أعرف أنها رفيقتي التي لن تتركني ولن تتخلى عن قلبي.

ابتسمت وهي تغالب دموعها....

ـ لأنني عرفت منذ البداية أنك رجل قلبي الذي لا يمكنني الحياة بدونه، ألا تعلم أنني كتبت فيك أبيات شعر، رغم أني لست شاعرة.

فغر فاها وهو يقول: لم تخبريني...

أشرق وجهها حبا وفرحا وهي تردد:

أعلنتُ عليكَ الحبّ و اشتياقي

و اختَزَلَتْكَ رجلا في الحبّ ذاتي

و اخترتك يا وجعي رفيقا لحياتي

و كل الرجال بعدك في الحسبة

حبيب عمري، مجرد باقي

ضمها إليه وراحة تملأ قلبه وكيانه، فخر يغزو كل خلية من خلايا جسده وهو يقول:

ـ ما الذي فعلته في حياتي لأستحقك...

قلبه الذي طالما ملأه الوجع يسأله بماذا استحق حب هذه المرأة المميزة، أي خير قام به ليكافئه الله بامرأة هي النعيم وتهديه هديتين لطالما تاق لهما منها هي و ليس من غيرها، قلبه الذي يملأه اليوم كل هذا الفرح يصرخ مجنونا بحبها.

كانت الرحلة طويلة، موجعة، تقاذفتهما الأمواج يمينا وشمالا ولكنهما وصلا أخيرا ليقفا على أرض صلبة، يده تمسك بيدها دون نية تركها، الحياة تناجيهما وحبهما مازال فيه بقية، طالما مازال في العمر بقية

.

تمت بحمد الله

2016 /11/11

# أتحبني بعد الذي كان...

كانت سهام في الثامنة عشر من عمرها وابن خالتها أيمن في الرابعة والعشرين، بدأ حبهما مذ كانا صغيرين وخطبا منذ ثلاثة سنوات في انتظار أن تتم سهام الثامنة عشر ودراستها الثانوية ليتزوجا.

كانا يعشقان بعضهما عشقا ملتهبا سمع به كل من يعرفهما.

دخل أيمن إلى بيت خالته، سلّم عليها وعيناه تبحثان عن سهام، سمعت سهام صوته فخرجت مسرعة إليه، ما إن رأته حتّى أشرق وجهها و لمعت عيناها العسليتان، لكنها كانت تحاول إخفاء شوقها والسيطرة على حواسها وقالت بصوت مرتجف:

ـ أهلا أيمن.

ـ أهلا سهام، كيف حالك؟

ـ بخير وأنت؟

ـ جيّد أنا برؤيتكم.

أحسّت أمّ سهام بشوق ابنتها وابن أختها فانسحبت إلى غرفتها.

أمسك أيمن يدي سهام بشوق يكاد يقفز من عينيه وهو يقول:

ـ مشتاق أنا، مشتاق ليوم يضمني أنا وأنت لوحدنا في بيتنا ويومها ستعرفين كيف أنا.

احمرّت وجنتا سهام ولم تستطع النظر إلى خطيبها فأضاف أيمن مبتسما:

ـ أعشق هذا الخجل فيكِ، رغم أننا نحب بعضنا منذ الأزل إلا أنك مازلت تخجلين مني كأنها أول مرة تسمعين فيها مني كم أحبك.

قالت سهام بلؤم ممزوج بالخجل:

ـ لأنّك تحبّني؟

انفجر أيمن ضاحكا وهو يقول:

ـ لأنّك لا تعلمين أنّي أحبك وأعشقك وأذوب فيك هياما.

زاد احمرار وجهها حتّى كاد ينفجر، حاولت أن تقول شيئا ولكنّ كلماتها خانتها ككلّ مرّة تكون في حضرة حبيبها، تنسحب منها الكلمات وتتركها تتخبّط في خجلها.

أمسك أيمن وجه حبيبته ورفعه إليه حتّى التقت أعينهما وارتسمت نظرة حادة في عينيه وهو يقول:

ـ لو تعلمين مقدار حبّي لك لخفت منه، هذا الحبّ الذي يسكنني، أنا نفسي أخاف منه...

حينها ارتجف قلبها وهي تجيبه:

ـ أعلم أن آخر شيء يمكن أن يخيفني في هذه الدّنيا هو حبّك، حبّك هو صمام أماني وسبب حياتي وأنا أعلم مقداره لأنّي أعرف مقدار حبّي لك.

ابتسم أيمن وهو يقول:

ـ شهران فقط يا حبيبتي وتصبحين زوجتي، لم أكن أعلم أن شهرين يمكن أن يكونا طويلان هكذا.

في هذه اللحظات سمع الاثنان صوت فتح الباب فتراجعت سهام خطوات إلى الوراء دخل زوج والدتها ونظر إليهما نظرة غير مريحة.

ـ أراك هنا اليوم أيضا يا أيمن.

ـ جئت أزور خالتي وخطبيتي.

ـ البارحة أيضا زرتهم ولم أكن موجودا كذلك.

ـ هذا بيت خالتي وأنا أحرص النّاس عليه يا زوج خالتي.

التفت إلى سهام موجّها كلامه:

ـ سأذهب الآن وأتّصل بكِ لاحقا.

أومأت سهام برأسها وتبعته إلى الباب مودعة إيّاه بعينيها.

دخل إبراهيم إلى غرفة زوجته أم سهام والشرر يتطاير من عينيه.

ـ ألم أقل لك أن تمنعي ابن أختك من دخول البيت وأنا غير موجود فيه، أم أن كلمتي لم تعد مسموعة في هذا البيت.

حاولت أم سهام السّيطرة على خوفها واختيار كلماتها حتّى لا تزيد من غضب زوجها.

ـ حاشا لله أنت سيّد هذ البيت والجميع يعلم أن أوامرك تطبق فيه ولكنّه جاء فقط ليسأل عن تدابير العرس، أنت تعلم أنّه بقي شهران فقط ويصبح زوجها.

ـ إلى ذلك الوقت هو غريب عنها وأنا لا أريده أن يدخل بيتي، ألا يكفي أنه سيتزوجها رغما عنّي.

ـ كيف رغما عنك لقد وافقت على زواجهما.

ـ نعم، بعدما أحضر كلّ رجال عائلتك الذين أحرجوني وسحبوا منّي الموافقة رغما عنّي.

ـ المهمّ أنّك وافقت وهما شهران فقط ويأخذها إلى بيته.

لم تكن أمّ سهام تفهم هذا الكره الغريب من إبراهيم لابن أختها، لقد تزوّجت بإبراهيم منذ أكثر من خمسة عشر سنة عندما مات زوجها ووجدت نفسها وحيدة مع ابنتها، تقدم إبراهيم لخطبتها والذي كان مطلقا لأنّه لا ينجب ظنّت أنّه سيتبنى ابنتها مثل ابنته لهذا السّبب، فقبلت الزّواج به، لكن مع مرور السّنوات أدركت أنّه رجل عنيف قلبه قاس، ومازاد الطّين بلّة أنّه كان يشرب الخمر ويحصل له أن يسكر حتّى يفقد السّيطرة على نفسه.

في هذه الأثناء كانت أمّ سهام ترسل ابنتها لبيت أختها أمّ أيمن، وكبرت سهام مع ابنة خالتها ليلى وحنان جدّتها من أمّها الحاجة فاطمة وتحت ناظري ابن خالتها أيمن وأحبا بعضهما في السّرّ، لكنّ حبّهما لم يخفَ على أحد من العائلة، فخطبا بمجرد بلوغ أيمن واحد عشرون سنة وسهام الخامسة عشر.

**أسبوع قبل العرس**

كانت أمّ سهام خارج البيت تتمّ التّرتيبات النّهائيّة لعرس ابنتها وسهام لوحدها في البيت سعيدة جدا تكاد تقفز في مشيتها كالفراشة من فرط سعادتها، فالبارحة تمّ عقد قرانها على أيمن لقد أصبحت زوجته أمام الله وأمام عائلتها وأمام القانون لم يبق إلّا العرس حتّى تصبح ملكه ويصبح ملكها، سمعت صوت الباب، فخرجت مسرعة لملاقاة والدتها ولكنّها فوجئت بزوج أمّها سكرانا يترامى بين أنحاء الصّالة، ما إن رآها حتّى لمعت عيناه المحمرتين وابتسم ابتسامته الخبيثة الّتي تعرفها سهام، خافت من شكله ودون إدراك تراجعت إلى الوراء، تقدّم هو منها دون أن يرفع عينيه عنها فتراجعت أكثر حتّى اصطدمت بالجدار، أمسك معصميها وبقي ينظر إليها نظرة مفترسة، عقد الخوف لسانها وبدأ جسدها يرتجف، فارتمى زوج والدتها عليها يقبلها بكلّ ما أوتي من قوة، ومن قسوة، قاومته و بدأت بالصّراخ لكنها كانت نحيلة الجسم كان هو ضخم الجثّة ، أسقطها أرضا، ارتمى عليها وبدأ في تمزيق ملابسها وهي تصرخ وتبكي عسى أن يسمعها

أحد ولكن لا حياة لمن تنادي وفجأة أحست بألم فظيع وغابت عن الإدراك، كانت واعيّة ولكن إحساسها توقف وجمدت كلّ حواسها.

بعد كم من الوقت، هي لا تدري، عاد إليها إدراكها نظرت حولها لم يكن زوج والدتها هناك، كانت لوحدها بالمنزل ملقاة على الأرض "لقد اغتصبها زوج والدتها" أحسّت أنّ العالم خلا من النّاس عداها وأدركت أنّها ستكون وحيدة في هذا العالم من اليوم، عالمها كلّه انهار وفجأة تذكّرت أيمن حبيبها، زوجها، جاء وجهه أمام عينيها مبتسما منتظرا، مترقّبا، عاشقا، فانهارت دموعها وديانا وانتابها ألم فظيع، هنا أين يسكن حبيبها، بالجهة اليسرى من صدرها يكاد هذا الألم يقتلها إنّه أقوى من الألم الذي أحسته عندما اغتصبها ذلك الوحش، هذا الألم أقوى وأشد، ألم الضّياع ألم فقدانها لأيمن، ألم أنّها لن تكون له بعد اليوم ولن يكون لها يوما.

لملمت نفسها المتناثرة ودخلت إلى غرفتها وهي تسمع هذا الفراغ الذي يملأ البيت لقد غادر زوج والدتها، هذا الفراغ الذي يملأ المكان والزّمان، هذا الفراغ الذي سكن روحها ولن يغادرها بعد اليوم.

مساءً عندما عادت أمّ سهام إلى البيت وجدت ابنتها جامدة في غرفتها، منكمشة فوق سريرها والدّموع تنهار من عينيها دون توقف سألتها بخوف ما بها وما سبب بكائها لكنّ سهام لم تكن قادرة لا على الرّدّ ولا على ردّ الفعل أمسكتها أمّها من كتفيها تهزّها بعنف وتسألها:

ـ ما بكِ يا ابنتي.

حينها نظرت سهام إلى والدتها وتوقفت دموعها فجأة ثمّ قالت بجمود مخيف:

ـ لقد اغتصبني زوجك للتو، اغتصبني زوجك يا أمي.

أحسّت أمّ سهام أنّ الدّنيا توقفت من حولها، لم تعد تدرك هل ما سمعته حقيقة أم كابوس، في تلك الأثناء دخل إبراهيم البيت، ما إن رأته أمّ سهام حتّى انقضت عليه تضرب صدره بقبضتي يديها.

ـ ما الذي فعلته أيه السّافل، ما الذي فعلته بابنتي.

ـ أمسك إبراهيم يدي زوجته ورماها أرضا وهو يقول:

اسألي ابنتك السافلة ما الذي فعلته، منذ زمن وهي تحاول إغوائي وما أنا إلا رجل وقد ضعفت لأنّي كنت سكرانا.

ذهلت سهام مّما تسمعه ولأوّل مرّة منذ الحادثة تصدر منها ردّة فعل فانقضت على الرّجل تخدش وجهه بأظافرها وهي تردد:

ـ أيّها الكاذب، أيّها الشّيطان.

فوجئ إبراهيم بردّة الفعل هاته الّتي أخذته على حين غرّة، لكنّه أمسكها وألقى بها بعيدا عنه حينذاك أدركت سهام أنّ والدتها مازالت ملقاة على الأرض ويصدر منها صوت أنين، اقتربت

منها مسرعة لتجد وجهها غادرته الدّماء وعيناها مقلوبتان فبدأت بالصّراخ.

ـ أمي ما بكِ يا أمي أرجوك أجيبيني يا أمي، سامحيني أنا لم أفعل شيئا، أمي أجيبي يا أمي أرجوكِ.

أصدرت والدتها صوتا مثل الغرغرة ثمّ توقف جسدها عن الحركة.

لم تدرك سهام أنّ والدتها ماتت، غادرت الحياة حتى سمعت صوت إبراهيم يقول:

ـ لقد ماتت، ماتت وارتحنا منها وإن أخبرت أحدا سأقول أنّك من أغويتني وأنّ والدتك ماتت عندما علمت بذلك.

**********

بعد ثلاثة أيام كانت سهام جالسة في غرفة ابنة خالتها ليلى صامتة وجامدة لا تتحدّث إلى أحد، لا تأكل ولا تتحرّك من مكانها، الكل كان خائفا عليها والكلّ كان يظن أنّ صدمتها هاته إثر وفاة والدتها ولا أحد كان يتوقّع أنّ هاته ليست صدمتها الوحيدة، تمّ تأجيل العرس إلى أجل غير محدّد.

دخل أيمن غرفة أخته ليلى أين كانت سهام جالسة مكانها على السّرير... عيناها فارغتان وكأنّ الحياة غادرتهما. عندما نظر أيمن إليها أحسّ بالألم يعتصر قلبه على حال زوجته الحبيبة،

جلس على حافة السّرير وأمسك يد سهام وهو ينظر إلى عينيها ويحاول إيجاد كلمات مناسبة:

ـ حبيبتي أعلم أنّ فقدك عظيم وأن لا أحد يمكنه أن يعوض مكانة أمّك، لكنّني أريدك أن تعرفي أنّني هنا من أجلك وأعدك أنّني سأعوضك، سأكون لك دائما الحبيب والزّوج والوالد والأم.

عندما لم يجد ردّة فعل منها أضاف:

ـ أنت تعلمين أنّني أحبك أكثر من الحياة نفسها وسأكون دائما إلى جوارك مثلما كنت دائما.

حينها وفجأة تغيرت نظرة سهام، نطرت إليه وهي تسحب يدها وتقول في هدوء غريب:

ـ لم تكن موجودا ساعتها لم تكن موجودا من أجلي.

ظنّ أيمن أنّها تقصد ساعة وفاة والدتها.

ـ وحتّى لو كنت موجودا ما كنت استطعت فعل شيء من أجلها، الموت هو الشيء الوحيد الذي يبقى الإنسان عاجزا أمامه مهما حاول ومهما كانت قدراته.

أجابت بنفس الهدوء والجمود:

ـ ليس الموت فقط، لا ليس الموت فقط.

ـ حبيبتي والدتك رحلت ولن تعود وأنت مازلت حيّة لذا يجب أن تأكلي شيئا وإلا ستموتين أنت أيضا، أرجوك حبيبتي من أجلي كلي شيئا.

أومأت برأسها أن لا.

ـ من أجلي أنا حبيبتي أرجوك.

نظرت إليه نطرة غريبة تتفحصه وكأنّها تراه لأوّل مرّة، وضعت يدها على وجهه تتحسسه وتحوّلت نظرتها إلى حبّ وحنان ممزوجين بالوجع ثمّ قالت:

ـ سامحني أرجوك تذكّر دائما أنّني أحببتك حبّا غارت منه مخلوقات الأرض وما ارتضاه لنا القدر، تذكّر دائما أنّي ما كنت يوما قادرة على إيذائك وأنّه رغما عنّي...

استغرب أيمن هذه الكلمات الّتي لم يفهم مغزاها، أمسك وجه حبيبته وقبّلها قبلة طويلة على جبينها ثمّ ضمّها إلى صدره يهدهدها كطفل صغير في حضن...

أمّه، كانت هي أثناءها تبكي بدون صوت مغمضة العينين تستشعر وجوده بقربها، تخزن رائحته بداخلها وتحفظ لمسة يديه وشفتيه الدّافئتين للأيّام القادمة، الأيّام الباردة الّتي ستكون بعده، الّتي ستكون من دونه.

استيقظ الجميع على صوت ليلى الّتي كانت تبحث عن سهام في أنحاء البيت ولم تجدها.

عشرة أيّام من بعد كانت سهام مازالت مختفية لا أثر لها ولا أحد يعرف مكانها، لقد رحلت وتركت رسالة فيها سطرين:

"لقد رحلت لا تبحثوا عنّي.....

أيمن زواجنا تمّ إلغاؤه إلى الأبد لا تنتظرني"

سطرين كان أيمن يقول في نفسه كلّ ما تنازلت به هو سطرين لتخبره أنّها خرجت من حياته إلى الأبد، أنّها ذبحته برحيلها وأنها هدمت كلّ أحلامه الّتي بناها مذ أحبها صغيرا، أحلامه بأنّها ستصبح زوجته ستصبح ملكا له وحده، ستحمل اسمه وتحمل أبناءه، حطمت كلّ هذا ورحلت، دون عناء إخباره وجها لوجه أنها سترحل، أنّها لم تعد تريد الزواج به، أوحتّى إلى أين تذهب،

**<u>بـعـد أربـع سـنـوات</u>**

في مصنع والده الذي توفي قبل سنتين كان أيمن يراقب حسابات المصنع والشّركة مع المحاسب بعد أن أصبح المدير وتولى أمور عائلته.

في الجهة الأخرى بعيدا جدّا، كان هناك قلب يراقب ويترقّب، لم تنس سهام يوما عائلتها الّتي تركتها ورحلت وبقيت تتابع أخبارهم من بعيد، تزوّجت ليلى وأنجبت طفلان ولد وبنت، مات والد أيمن، كم تمنت أن تحضر جنازته أن تكون بجانب أيمن في

هذه اللّحظات بالذّات، تولى هو أمور المصنع والشّركة، تعثر في البداية لكنّه اليوم أصبح مديرا لامعا يحسب له ألف حساب كم هي فخورة به، هذا هو أيمنها الذي لطالما عشقته بهذه القوة وهذا الذّكاء، لكنّه لم يعد ملكا لها، كانت تراقب جولات خالتها وجدتها الحاجة فاطمة من بعيد، كبرت جدتها وظهرت عليها آثار الزّمن، لكم تتمنى أن ترتمي في حضن جدّتها مرّة واحدة فقط مثلما كانت تفعل وهي صغيرة، مرّة واحدة تبكي فيها كلّ أحزانها وآلامها المخبأة ولا بأس إن ماتت بعدها، لكنّها لم تكن تستطيع ذلك. حرمها ذلك الحيوان من كلّ شيء، حتّى الحياة... لأنّها حية ولكنّها لم تعد تحيا.

بعد أن رحلت طرقت الأبواب وعملت كخادمة في البيوت، ذاقت مر الحياة هي الّتي كانت تتنعم في الدّلال. تعرضت لمحاولة اغتصاب مرّة أخرى، لكنّها هذه المرّة قاومت بكلّ الغضب الكامن بداخلها، كسرت ذراع الرّجل وكادت تفقده إحدى عينيه، ثمّ عملت كبائعة في محل لبيع الملابس النّسائيّة، استأجرت غرفة واحدة لتعيش فيها، كانت ملاذها الوحيد في وحدتها وعاشت أحزانها في هذا البيت...

لم تمرّ عليها لحظة منذ ذلك اليوم المشؤوم إلا وتذكّرت فيه حياتها الّتي انهارت أمامها، كانت كثيرا ما تضيع في خيالاتها تحلم أنّها تزوّجت من أيمن وأنجبت منه أطفالا، ووالدتها مازالت حيّة وهي وسط عائلتها لتستفيق تعود إلى عالمها الخالي إلا من الوجع الذي أصبح رفيقها.

كعادتها ذهبت سهام اليوم لتلتقط أخبار عائلتها وأخبار أيمن، كان شوقها لرؤيته يوجعها، لكنّها عادت أسوأ من كلّ يوم، لقد رأته لكن مع امرأة أخرى كان يمسك يدها ويضحك لها هي، تلك الضّحكة كانت لها، تلك اليد كانت رفيقة يدها هي، اليوم ضاعت منها أخذتها امرأة أخرى، نسيها أخيرا بعد أربع سنوات نسيها وهاهو يتعرّف على أخرى، يحبّ أخرى، هل يحبّها فعلا؟؟؟ يا للوجع الذي ألمّ بها يا لليأس والألم، أنسيها فعلا، لكنّ ما الذي كانت تتوقّعه أن يعيش أعزبا في محراب عشقها، في النّهاية هو حبيبها وسعادته أهم من سعادتها أرادت أن تفرح لأنّه سيبدأ بالعيش من جديد، لكنّ نيران الغيرة كانت تأكل داخلها بلا رحمة ووجع قلبها يتنامى كلّما تذكرته مع تلك الأخرى كيف ستتحمّل أنّه أصبح لأخرى كيف يستطيع خافقها أن يدقّ وهي تعلم أنّ خافقه هو يدقّ لأخرى.

بعد عدّة أيّام عندما اتّصلت بصديقة طفولتها أمل الّتي كانت تنقل لها أخبار عائلتها وأخبار أيمن، أعلمتها هذه الأخيرة أنّ جدّتها مريضة جدّا وأنّ الجملة الوحيدة الّتي تردّدها "أريد أن أرى سهام قبل أن أموت" بكت سهام فرقتها، بكت حرقتها على جدّتها، هذا الخبر أحزنها وأقض نومها، أيّام وهي تفكر في حلّ، تتردد إلى أمام مسكن خالتها، تراقب من بعيد متردّدة بين الدّخول بعد كلّ هاته السّنوات وبين العودة والبقاء بعيدا في منفاها. في الأخير غلبها شوقها وانتصر خوفها على جدّتها ولم تدرك إلا وهي واقفة أمام الباب تدقّ الجرس.

خالتها هي من فتحت الباب، واقفة مندهشة وكأنّها لا تصدق عينيها وفجأة صرخت باسمها وأخذتها بين ذراعيها تحتضنها وكلاهما تبكيان، أسرعت ليلى إلى الباب إثر الضّجة وارتمت هي الأخرى تحتضن سهام وتبكي غير مصدّقة.

دخلت سهام على جدّتها وارتمت في حضنها وانخرطت الاثنتان في نوبة من البكاء على فراق السّنوات الّتي مضت بأوجاعها وآمالها الضّائعة.

في المساء عاد أيمن إلى البيت ما إن دخل حتّى سأل عن حال جدّته، أخذته أمّه إلى غرفته وأخبرته أن سهام قد عادت، لم يعرف أيمن تفسيرا للشّعور الذي أحسّ به ساعتها، مزيج من الرّاحة لأنّهم وجدوها أخيرا ومن الغضب الذي صحا بداخله لأنّها تركته كلّ هذه السّنوات ثمّ عادت بهذه البساطة ومن الحيرة والوجع الذي ظنّه قد مات وانطفأ وكثير من التّساؤلات، لماذا عادت الآن لماذا بعد كل هذا الوقت وأين كانت.

ـ هل أخبرتكم أين كانت طيلة هذه المدّة؟؟

ـ نعم، كانت تقيم وحدها في شقّة استأجرتها.

ـ لماذا رحلت هكذا دون سبب؟؟

ترددت أمّ أيمن في نقل الجواب الذي أعطتهم إيّاه سهام ثمّ ردت:

ـ قالت أنّها لم تحتمل البقاء هنا أين كان كلّ شيء يذكّرها بوالدتها.

أحسّ أيمن أن جراحه فتحت من جديد وعادت للنّزيف، نزيف مؤلم يقتل روحه بعد كلّ هاته السّنوات الّتي حاول فيها تضميد جراحه، بعدما أقنع نفسه أخيرا أنّه نسيها وأن من حقّه الحياة بعدها، بعدما بدأ يخطط لحياة جديدة، حياة ليس فيها "هي" ولا ذكرياتها ولا أوجاعها الّتي تركتها له كأنّها تورثه إرثا تمثل في روحها الحاضرة دوما في رائحتها الّتي تسكنه في كلماتها الّتي لا تغادره، هاهي اليوم تعود بكلّ هذه البساطة لتخبره أنّه لم يكن مهمّا لها حتّى تبقى من أجله، أنّه لم يكن كافيا لتكمل حياتها برفقته.

سكت أيمن وهو يضغط على جراح روحه النّازفة ثمّ قال وهو يكزّ على أسنانه:

ـ وما الذي تنويه الآن؟

ـ لقد أقنعتها أنا وجدّتك بالبقاء معنا بعض الوقت من أجل جدّتك وسنرى بعدها.

كان الغضب يأكل داخل أيمن لكنه سكت على مضض ثمّ سمع والدته تضيف:

ـ ألن تسلّم عليها.

ـ لا، ولا أريد رؤيتها، يستحسن أن تتحاشى أوقات خروجي وعودتي.

ـ لكن يا ولدي.....

قاطعها قائلا:

أمي أنا لا أعارض بقاءها بالبيت من أجل جدّتي لكن لا أحد في العالم سيرغمني على التّعامل معها وكأنّ شيئا لم يكن.

ـ حسنا يا ولدي ولكن كانت لها ظروفها، صدمة وفاة والدتها لم تكن سهلة عليها.

خرجت ضحكة ساخرة من فم أيمن لم يستطع منعها وهو يقول:

ـ نعم، صدمة دامت أربع سنوات ولم تستفق منها إلّا اليوم.

ـ ربّما أرادت أن تعود يا ولدي ولكنّها لم تعرف كيف تفعل بعد خروجها بتلك الطّريقة، ربّما كانت محرّجة.

ـ أمّي أرجوك لا تحاولي إيجاد الأعذار لها، هي ابنة أختك وأنا لا يمكنني تغيير هذا الأمر، لكن بالنّسبة لي هي صفحة من الماضي تمزّقت يوما وانتهى أمرها.

قالت أمّ أيمن بنبرة متوسّلة:

ـ لكنّها تظلّ ابنة خالتك وليس لها أحد في الدّنيا سوانا فنحن عائلتها الوحيدة.

ـ إذا احتاجت لأيّ مساعدة سأفعل لأنّها ابنة أختك، لكن لا تطلبي منّي أكثر من ذلك يا أمي.

سكتت والدته على مضض وهي مدركة لحجم العذاب والألم الذي عانى منهما ابنها بعد اختفاء سهام، أوقف حياته سنة كاملة وهو

يبحث عنها في كلّ مكان خطر على باله وفي النّهاية عندما أصابه اليأس صمت وكأنّه قرّر في داخله أنّها ماتت ولم ينطق باسمها أو يتحدّث عنها مرّة أخرى، لم ينقذه إلّا عمله في شركة والده وتحمل مسؤولية العائلة من بعد وفاته.

في الأيّام الّتي تلت كان أيمن يتحاشى القدوم إلى المنزل في أوقات الغذاء والعشاء وكانت سهام تبقى في غرفة ليلى الّتي عادت لبيت زوجها أو في غرفة جدّتها الّتي تحسّنت حالتها، حاولت سهام المغادرة على إثر ذلك لكن الجدّة لم تسمح لها واستحلفتها بكلّ غال لديها أن تبقى.

استيقظت سهام في الصّباح الباكر متّجهة لغرفة جدّتها لتطمئن عليها، ما إن أغلقت باب الغرفة واستدارت حتّى تجمّدت مكانها غير قادرة على الحركة، في الجهة المقابلة كان أيمن واقفا ينظر إليها نظرة قاسيّة، فارغة استدار وخرج من البيت وكأنّها لم تكن.

تحركت قدما سهام بصعوبة عائدة إلى غرفتها وانهارت جالسة على السّرير بقي وجهه أمام عينيها وتلك النّظرة لم يكن ذلك أيمنها الذي عرفته دائما، كان شخصا آخر، شخص لا يراها ولا يحسّ بوجودها، إنهارت باكيّة لقد فقدته منذ أربع سنوات، لكنّها اليوم رأت فقدها بأمّ عينيها وكاد الوجع الذي بداخلها يقطع أنفاسها، ويا ليته يفعل حتّى تستريح إلى الأبد.

في اليوم التّالي قرّرت سهام الرّحيل، لا يمكنها أن تتحمّل العيش في بيت واحد مع أيمن، أيمن الذي نسيها لدرجة إنكار وجودها، لا يمكنها تحمّل ذلك.

حاولت خالتها وجدّتها ثنيها عن الأمر لكنّها أصرّت على ذلك ولم تسلم منهما إلّا بعد أن تركت عنوانها وغادرت مرّة أخرى بنفس أوجاعها الّتي أضيف إليها وجع أنّها لم تعد موجودة بالنّسبة لأيمن لقد قتلها بداخله كما قتلها ذلك الوحش في ذلك اليوم.

بعد عدّة أيّام عندما كانت سهام ببيتها مساءً سمعت طرقا على الباب انتفضت مستغربة، فمنذ أن سكنت هذا البيت لم يطرق بابها أحد، تردّدت أولا ثمّ وقفت عند الباب وسألت:

ـ من هناك؟؟

جاءها صوت من وراء الباب:

ـ أنا خالتك افتحي يا سهام.

فتحت سهام الباب في عجل متوقّعة أنّ مجيء خالتها يحمل خبرا سيئا عن جدّتها وقالت في قلق واضح:

ـ هل حدث شيء لجدّتي؟؟

ـ لا يا ابنتي جدّتك بخير، أنا جئت فقط لزيارتك والاطمئنان عليك.

لاحظت سهام صدمة خالتها وهي تتقدّم خطوات وتعاين المكان الذي تقيم فيه ابنة أختها، غرفة واحدة تملؤها الرّطوبة، جدران بها نتوءات، سقف مسودّ، رائحة غريبة بالمكان وبرد غير عادي بالغرفة.

ـ أهذا هو بيتك؟

أجابت سهام في ضيق واضح:

ـ نعم، يا خالتي.

ـ لماذا يا ابنتي، لماذا تسكنين في مكان كهذا؟؟

ـ لأنّ هذا ما تسمح به إمكانياتي.

ـ لكن لماذا؟؟ ما الذي يضطرّك لذلك؟؟ بيت خالتك موجود.

ـ لا، يا خالتي بيت خالتي ليس بيتي.

ـ هو بيتك يا ابنتي ونحن عائلتك، يجب أن تغادري المكان فورا تعالي للإقامة معي أنا وجدّتك.

ـ لا يا خالتي، أنت تعلمين جيّدا أني ليس مرحب بي في بيتك.

ـ بل مرحب بك، أنا وجدتك نتمنى ذلك وإذا كنت تعنين أيمن فهو سيتعوّد على الأمر، امنحيه بعض الوقت فقط يا ابنتي.

أجابت سهام والدّموع تملأ عينيها:

ـ هذا بيتي يا خالتي وهذه أصبحت حياتي وذلك لن يتغيّر فأنا لن أجبر أيمن على تقبّلي في حياته رغما عنه.

ثلاثة أيّام مرّت على الواقعة، لم تتوقف أمّ أيمن عن الحديث بأسف عن ظروف سهام وعن وصف البيت الذي تسكن فيه، كانت تبكي بحرقة على الحالة الّتي آلت إليها ابنة أختها، الأمانة الّتي تركتها شقيقتها والّتي فرطت هي بها بتركها تغادر بيتها وتفهم ابنها بطريقة غير مباشرة أنّ سبب عدم حضور سهام للإقامة معها هو تصرفاته عندما كانت هنا وكان خوف الجدّة يزداد كلّما سمعت أمّ أيمن تصف المكان الذي تقيم فيه حفيدتها قرّرت الجدّة أخيرا الحديث مع حفيدها.

ـ هل ستترك ابنة خالتك في ذلك المكان؟

ـ هي اختارت ذلك يا جدّتي لا أحد أجبرها.

ـ وإن يكن، أنت اليوم رب هذه العائلة وهي مسؤولة منك.

ـ وما الذي تريدينني أن أفعله يا جدّتي هي ترفض الإقامة معنا.

ـ هي لن تعود مادمت أنت ترفض الأمر.

تنهد أيمن وهو يقول:

ـ فلتعد إن شاءت.

ـ لن تعود يا ولدي إلّا إذا أحضرتها أنت.

نظر أيمن باستغراب لجدته وهو يقول:

ـ أنت لا تتوقعين منّي أن أستجديها العودة يا جدّتي.

ـ أرغمها إذا اقتضى الأمر يا ولدي هي دمك وعرضك.

ثمّ أضافت وهي تغالب دموعها:

ـ لا تتركها تموت هناك في ذلك المكان يا ولدي أرجوك.

فتحت سهام باب بيتها وبقيت مصدومة وهي ترى أيمن يقف قبالتها، بعد صمت رهيب نطق أيمن أخيرا:

ـ جئت لآخذك إلى البيت، اجمعي أغراضك.

بعد أن عقدت الصّدمة لسانها ثمّ استيعابها للأمر أجابت:

ـ أيّ بيت تقصد؟

ـ بيتنا، بيت خالتك.

استجمعت سهام قواها حتّى لا يلحظ أيمن ارتباكها.

ـ لا أريد القدوم، هذا هو بيتي وأنا لن أغادره.

تطلع أيمن بعينيه ليرى هذا البيت الذي لم تتوقف أمّه عن وصفه، لكنّ الحقيقة كانت أسوأ بكثير من وصف والدته، ابتسم ابتسامة ساخرة وهو يقول:

ـ وهل تسمين هذا بيتا؟

أحسّت سهام بالغضب وهي تجيب:

ـ إنّه بعيد جدّا عن فخامة قصركم ولكنّه بيتي وأنا لم أشتك لأحد.

بنفس الابتسامة السّاخرة:

ـ نحن نسكن فيلا وليس قصرا ولكن لا يمكن بأيّ حال من الأحوال تسمية هذا الشّيء "بيت"

ـ أيّا كان أنا لن آتي معك إلى أيّ مكان؟

نظر أيمن إلى المرأة الواقفة قبالته يتفحصها لأوّل مرّة منذ عودتها، لقد تغيّرت كثيرا، ملامحها نفسها نفس العينين العسليتين، نفس الأنف الشّامخ، نفس الشّفتين المكتنزتين ونفس الشّعر الأسود كضلال اللّيل، لكنّ جسمها نحيل وعيناها حزينتان ،غادرتهما تلك البراءة الّتي طالما عشقها فيهما نظرات يائسة، متحديّة لكنّها يائسة وشفتاها، لم تعد شفتاها تبتسمان، ترى منذ متى غادرتهما البسمة؟ أين ذلك المرح الذي كان يملؤهما؟

ابنة خالته، تلك الّتي كانت حبيبته لسنوات طويلة، تقف اليوم قبالته كأنّها لم تحبه يوما ولم تسبب له كلّ ذلك الألم برحيلها، كان الموقف صعبا عليه لأنّه في هذه.

اللّحظات بالذّات لم يكن متأكدا من شعوره اتّجاه هذه المرأة، أيشفق عليها؟ أنسيّها فعلا ونسي حبّها أم أنّ غضبه يمنعه من الشّعور بشيء اتجاهها؟

علم أيمن أنّه يجب عليه استعمال الحيلة لإقناعها فقال:

ـ جدتي ووالدتي لم تتوقفا عن البكاء مذ عادت أمّي من زيارتها لك، وطلبتا منّي ألا أعود بدونك وأن أخبرك أنّك إن لم تأت أنت، ستأتي امّي والجدّة للإقامة معك هنا.

أجابت سهام مفزوعة:

ـ ولكن هذا غير ممكن ستموت جدّتي إذا قدمت للإقامة هنا.

ـ هذا ما قالته بالضّبط "لا تدعها تموت هناك" .

أحسّت سهام بوجع الكلمات الّتي أسقطت عنادها.

ـ حسنا أنا قادمة يمكنك انتظاري في السّيّارة.

أدارت ظهرها متّجهة إلى الدّاخل لتخفي دموعها الّتي بدأت تتساقط كسقوط المطر، في النّهاية مازالت لديها عائلة تقلق عليها، على الأقلّ لديها جدّتها وخالتها.

عادت سهام إلى بيت خالتها للإقامة فيه كانت تلتقي أيمن صدفة فقط ويتحاشى أحدهما الحديث مع الآخر.

كانت أيّامها تمرّ في سلام في حضن جدّتها وخالتها اللّتان كانتا تحاولان إطعامها أكثر من قدرتها لأنّها نحيلة وتهتمّان بها ولكنّ لياليها كانت صعبة وقاسية تدخل غرفتها قبل موعد عودة أيمن وتعيش عذاب وجودها بهذا القرب منه وبهذا البعد في آن واحد، تسمع خطواته داخل البيت، صوته وهو يتحدّث مع والدته و

جدته. ضحكاته التي لم تكن موجهة لها ، كان النوم يجافيها طويلا و لا تنام إلا باكية في ساعات متأخرة من الليل.

أمّا هو فكان هناك في عالمه ينهك نفسه طيلة اليوم لينسى التّفكير فيها ولكن ما إن يدخل البيت حتى تعاوده هواجسه، أصبح مهووسا منذ عودتها بسؤال واحد "لماذا تركته وذهبت".

ذات يوم عطلة، عاد مبكرا للبيت ولم تكن جدته ولا أمّه هناك، أدرك فجأة أنه في البيت مع سهام لوحدهما. بقيت هي في غرفتها ولم تغادرها ودخل هو غرفته وأغلق عليه بابه، لكنّ هواجسه لم تتركه حاول إخراجها من عقله، قاومها لكنه نهض فجأة دون إدراك متجها إلى غرفة سهام، فتح الباب دون طرقه حتّى ودخل ثمّ وقف متصلبا هناك، كانت هي مستلقية على السّرير بمنامة خفيفة من غير أكمام، شعرها مبعثر على وجهها وعيناها. آه من عيناها العسليتان كانتا محمرتان من البكاء، كان منظرها كجنية خرجت من عالمها لتفتن هذا الإنسي الواقف أمامها، سألها بصوت أجش مختنق:

ـ لماذا تبكين؟

صدمها حضوره، صدمها دخوله عليها الغرفة، صدمها سؤاله، صدمها إحساسها الهائج بداخلها ورغبتها في الارتماء بين ذراعيه كما كانت تفعل ذات حياة عندما كانت الحياة ملكهما، اعتدلت جالسة على السّرير وبتوتر وصوت مرتجف أجابت.

ـ لست أبكي...

ـ لماذا هذه الدّموع في عينيك؟

قالت ودموعها تهطل هطول المطر وبصوت متقطع:

ـ ليست دموعا....

في تلك اللّحظة فقد السّيطرة على نفسه وكأنّ الزّمن عاد به أربع سنوات إلى الوراء وكأنّ لا شيء ممّا كان قد كان، اقترب منها وسحبها من يديها أوقفها وضمها إلى حضنه التصقت به أكثر وأكثر وانفجرت باكية بكلّ الوجع الذي يسكنها وكلّ الحبّ الذي يؤلمها.

أخذ وجهها بين يديه، عيناه تلتهمان تفاصيل وجهها الذي اشتاق إليه وبدأ يقبل عيناها يمسح دموعها بشفتيه. يقبل جبينها ووجنتاها، ثمّ قبل فمها في قبلة رقيقة تحوّلت إلى قبلة جائعة وكأنّه يريد أن يلتهم روحها يريد أن يعوّض بها سنينهما الضّائعة وكانت تبادله القبلة بنفس النّهم بعد أن توقفت عن البكاء وفجأة توقف نظر إليها سألها:

ـ لماذا رحلت؟ لماذا تركتني ورحلت؟

صمتت لا تعرف بما تجيبه، ليتها تستطيع إخباره، ليتها تستطيع البوح له بكلّ أوجاعها الّتي أنهكتها، لكنها لا تستطيع.

تحولت نظرته الحانيّة إلى نظرة قاسيّة حانقة ترك وجهها وقال:

ـ ليتك لم تعودي ليتك بقيت ميّتة حيثما كنت.

انسحب خارجا من الغرفة، سقطت سهام على السّرير مصدومة يرتعش جسمها كلّه ثمّ انفجرت بالبكاء، بعد قليل سمعت صفق الباب، لقد خرج من المنزل.

في الأيّام الّتي تلت كان أيمن يعود متأخّرا للبيت ولم يلتقيا، ذات يوم كانت سهام جالسة مع جدتها وفجأة سألتها جدتها:

ـ ألن تخبريني عن سبب رحيلك يا ابنتي بتلك الطّريقة.

اضطربت سهام من السّؤال ولكنّها حاولت إخفاء اضطرابها مجيبة:

ـ أخبرتك يا جدّتي لم أستطع تحمّل الأمر بعد رحيل والدتي.

نظرت إليها والدتها نظرة متفرسة ثمّ قالت:

ـ لن تستطيعي خداع شيبتي يا ابنتي، لكنت عدت بعدها لكنّ شيئا آخر حدث لك أخبريني يا ابنتي ما الذي أطفأ النّور بعينيك، ما الذي أطفأ الحياة بداخلك وجعلك تقبلين العيشة البائسة الّتي كنت فيها على العودة إلينا.

اغرورقت عينا سهام بالدّموع الّتي كانت تجاهد في إمساكها ثمّ رمت نفسها في حضن جدّتها وتركت العنان لدموعها وهي تقول:

ـ لا أستطيع يا جدتي لا أستطيع.

ـ لماذا يا ابنتي، أنا جدّتك وأستطيع تفهم أيّ شيء تقولينه لي ومساعدتك.

ـ لا يا جدّتي لو أخبرتك لما استطعت تحمّل الأمر أنا نفسي يصعب عليّ تحمّله إلى اليوم.

أمسكت الجدّة حفيدتها من كتفيها وسحبتها إلى الوراء.

ـ إذن فإحساسي صادق حدث معك شيء اضطرك للرّحيل، أخبريني به بنيتي ولا تزيدي في قلقي.

ـ لا أستطيع يا جدّتي، لا أستطيع.

وقفت هاربة من الغرفة ركضا.

أخبرت الجدّة ابنتها أم أيمن بحديثها مع حفيدتها، اجتهدت المرأتان في الأيّام التّالية لسحب اعتراف من سهام بما حدث لكن بدون جدوى، في آخر الأمر انفردت أمّ أيمن بابنها وأخبرته بحديث الجدّة مع سهام، بقي أيمن أيّاما متردّدا في الأمر ثمّ حسم أمره وقرر الحديث مع سهام.

دخل أيمن غرفة سهام وأغلق الباب وراءه.

ـ جئت للحديث معك عن أمر ما.

فوجئت سهام ببروده بعد ما حدث بينهما ذلك اليوم، لكنّ في الحقيقة لم يكن برودا، هو كان يجاهد ليخفي توتره أمامها.

ـ أخبرتني أمّي عن حديثك مع جدّتي ذلك اليوم.

تظاهرت سهام بعدم الفهم مخفيّة إرتباكها .

ـ أي حديث تقصد فأنا وجدتي نتحدّث كثيرا.

ـ لا تتظاهري بعدم الفهم أنت تعلمين جيّدا أنّي أتحدّث عن سبب رحيلك الذي لم تريدي إخبار جدّتي به

ـ ليس هناك أي سبب جدّتي لم تفهم حديثي،وظنت أن هناك سبب آخر غير موت أمي.

ـ لقد أخبرتها أنّها لا تستطيع تحمّله وأنّك أنت نفسك بالكاد تتحملينه.

بعد صمت ساد في الغرفة قطعه أيمن قائلا:

ـ أخبريني بسبب رحيلك أرجوك يا سهام.

حينها رفعت وجهها إليه والألم يكاد يمزقها، هذه أوّل مرّة منذ أربع سنوات تسمع اسمها من فمه ولكم اشتاقت لذلك، كم اشتاقت سماع صوته يناديها حبيبتي، حلوتي، جميلتي، أخذتها الذّكريات فجأة إلى زمن مضى زمن يبدو بعيدا جدّا بل يبدو كأنّه لم يكن وكأنّه كان مجرد حلم حتّى قطع صوته شرودها.

ـ أنا ابن خالتك وزوجك، من حقّي عليك بحقّ ما فعلته بي برحيلك، من حقّي عليك أن تخبريني حتّى أرتاح وأقلب الصّفحة.

نظرت إليه ودموعها تخونها والألم يمزق أحشاءها، هناك أمل بداخلها بدأ يصحو بكلماته، لم يقلب الصّفحة بعد بعد أربع

سنوات لم يقلب الصّفحة، هذا يعني أنّه لم ينسها، مازال بداخله شيء ما ولكن ما الفائدة نظرت إليه نظرة عميقة دامعة وقالت بصوت مبحوح يخنقه الألم.

ـ لا أستطيع كلّ ما أستطيع قوله هو أنّي لم أرغب يوما بأذيتك، كلّ ما كان كان رغما عنّي.

ـ لماذا لاتستطيعين ما هذا الأمر الجلل الذي يمنعك من الكلام.

سكتت سهام عاجزة عن قول أيّ كلمة.

وقف أيمن والغضب يعتريه خرج من الغرفة صافقا الباب عندها تركت سهام العنان لدموعها.

عندما هدأ غضبه بدأ أيمن في استعادة كلمات سهام "لا أستطيع"، بدأ في التّفكير ما الذي حدث معها وقلب حياتهما رأسا على عقب، ما الذي جعلها ترحل بتلك الصّورة وتتحمّل الحياة البائسة الّتي كانت تعيشها "كلّ ما أستطيع قوله هو أنّي لم أرغب بأذيتك" ما الذي حدث قبل أربع سنوات "كلّ ما كان كان رغما عنّي" فجأة عادت به ذاكرته إلى الوراء وتذكر أنّه سمع منها كلاما مشابها لهذا قبل رحيلها المفاجئ، تذكّر عندما دخل غرفتها بعد موت والدتها عندما قالت له يومها:

" سامحني تذكّر دائما أنّني أحببتك حبّا غارت منه مخلوقات الأرض وما ارتضاه لنا القدر وأنّني ما كنت يوما قادرة على إيذائك وأنّه رغما عنّي"

انتصب أيمن واقفا وبدأ يجوب الغرفة بخطوات عريضة وكلماتها تتردّد في أذنيه، أتراها كانت تبعث له رسالة؟ لماذا يومها لم يتوقّف عند هذه الكلمات؟ لماذا لم يسألها ما الذي كان رغما عنها؟ لماذا لم يضغط عليها يومها؟.

أيقن أيمن أنّ في الأمر إنّ وأنّه يجب أن يعرف سرّها، هذا السّرّ الذي حطم حياته وأطفأ الحياة في داخل حبيبته.

قرر أيمن في نفسه أنّه يجب أن يخرج سهام من البيت يجب أن يأخذها لمكان آخر حتّى يستطيع الضّغط عليها واستنطاقها ليجبرها على البوح بسرها.

ذات مساء طرق أيمن غرفة سهام ودخل.

ـ أريد منك الذّهاب معي غدا لأمر مهمّ.

فوجئت سهام بكلامه وقالت متعجّبة:

ـ أيّ أمر هذا.

ـ سنذهب إلى بيت والدتك من أجل رؤية الأغراض الّتي تحتاجينها لتسوية وضعيته وستحددين ما الذي تريدين فعله به، لقد اشتريت حقّ إبراهيم منذ أربع سنوات وكنا بانتظارك...

ما إن سمعت سهام اسم إبراهيم حتّى بدأ جسدها في الارتعاش، لاحظ أيمن ذلك و لم يفهم سببه، اقترب منها مفزوعا.

ـ مابك سهام ما الذي حدث لك للتو.

لم تجب سهام وازداد ارتعاشها، أمسك أيمن يديها وهو يسأل....

ـ لماذا ترتجفين هكذا، يا إلهي هل أنت مريضة؟

وضع يده على جبينها يتفقد حرارتها ثمّ على وجنتيها، حرارتها كانت عاديّة لكنّ رجفتها لا تتوقف.

أمسكها بكلتا يديه من كتفيها محاولا تثبيت جسدها لكن بدون جدوى، حينها ضمها إليه بقوة حتّى يوقف رجفة جسدها، ثمّ بقوة أكثر وأكثر، سحب وجهها من حضنه ونظر إلى عينيها كانت الدّموع تسيل منهما سيلانا. وبدأت شهقاتها تعلو، خوف وهلع يملآن عينيها دون أن يفهم أيمن سبب هذه الحالة، بدأ في هزّها بقوة لعلّها تعود لوعيها ثمّ بدأ بمناداة والدته الّتي دخلت مسرعة، عندما رأت سهام أصابها الفزع، ركضت إليها وأخذتها في حضنها وهي توجه كلامها لابنها...

ـ ماذا بها ماذا قلت لها حتّى جعلتها في هذه الحالة؟

ـ لم أقل شيئا.

ـ كيف لم تقل شيئا؟

في هذه الأثناء دخلت الجدّة مسرعة وأرعبها ما رأته.

ـ ما بها سهام، مابها حفيدتي؟

جاء صوت أم أيمن من هناك.

ـ أيمن اتصل بالطّبيب فورا...

كان أيمن جالسا في غرفته يفكر في ما قاله الطّبيب بعد أن عاين سهام شرح له أيمن ما قاله لها.

"الكلام الذي قلته لها جعلها تسترجع حالة حدثت لها أدّت إلى أزمة عصبيّة"

حاول أيمن مع الطّبيب فهم ما الذي قاله في كلامه وسبب لها هذه الحالة هل يكون ذلك لتذكّرها موت والدتها. أجاب الطّبيب أنّه يمكن أن يكون السّبب بعد أكثر من أربع سنوات من إنكار الأمر والهروب منه ويمكن أن يكون سببا آخر وأنّ المريضة بحاجة لجلسات علاج لكشف السّبب الحقيقي أعطاها حقنة مهدئة وكتب لها دواء في حالة عودة الحالة.

شريط تلك اللّحظة لم يتوقّف عن المرور أمام عيني أيمن، في النّهاية توصل إلى ربط هذا الأمر مع السّبب الذي تخفيه سهام عنهم جميعا منذ أكثر من أربع سنوات.

بعد أسبوع من الحادثة أبلغ أيمن سهام بقراره لأخذها إلى الطّبيب النّفسي للمعاينة رفضت واحتجت لكنّ إصراره وإلحاح جدّتها وخالتها عليها جعلاها تستسلم في النّهاية.

داخل سيّارة أيمن كان يجلس الاثنان في الكرسيين الأماميين، كانت قريبة منه لدرجة تفقدها القدرة على التّنفّس السّليم، تسترق النّظر إلى يده على المقود، لم تتجرأ على النّظر إليه لكن شوقها يحرق داخلها، كم تتمنى أن تضع يدها على يده، كم تتمنى أن تنظر إليه فيبتسم لها، كم تتمنى لو تحدّثه فتسمع صوته يردّ عليها.

هو كان يجلس هناك يبدو هادئا مسيطرا على نفسه، وجودها بجانبه لا يعنيه ولا يحرك فيه شيئا، لكنّ الحقيقة غير ذلك كان الشّوق يكاد يقتله، والألم يعتصر قلبه، هذه الفتاة الضعيفة الّتي تخفي سرّا لا يعرفه، هذه الفتاة التي لم يستطع حمايتها كانت زوجته وبنى معها أحلامه المستقبليّة، هذه الفتاة الّتي تركته فتركته روحه بعدها. لم يستطع نسيانها رغم مرور أكثر من أربع سنوات ورغم كلّ جهوده صحا حبّها بداخله بمجرّد عودتها هذه الفتاة المكسورة الحزينة، فتاته هو وهذا السّرّ الذي أبعدها، عليه معرفة هذا السّرّ ولو كلفه الأمر حياته.

أدركت سهام فجأة أنّ سيّارة أيمن قد توقّفت، وفوجئت بأنّها تقف أمام بيت والدتها انتابها فزع كبير لكنّها حاولت السّيطرة على نفسها وجدت أيمن ينظر إليها بعينين متأملتين فسألته في توتر:

ـ لماذا نحن هنا؟

ـ سنصعد إلى فوق لدقيقتين ثمّ ننزل.

ـ لا أريد الصّعود.

ـ لماذا؟

ـ هكذا.

أمسك يدها بقوّة مضطرا إيّاها للنّظر إليه.

ـ أخبريني لماذا لا تريدين الصّعود لبيت والدتك.

حاولت سحب يدها بدون جدوى وهي تقول:

ـ لا أريد فقط، لا يمكنك إرغامي على ذلك.

نظر إليها وهو يقول:

ـ سأبدأ بالشّك في هذا الموضوع في النّهاية ليس هذا إلّا بيت والدتك والمفروض أنّه يحمل حنين أيّامك السّعيدة هنا.

خشيت سهام من إثارة الرّيبة في قلبه وعلمت أنّ لا حلّ لها إلّا الصّعود إلى هناك، استجمعت قواها وقالت:

ـ حسنا لدقيقتين فقط..

عندما فتح أيمن باب البيت تردّدت في الدّخول، بصعوبة وبشجاعة لم تدر قبلا أنّها كانت تمتلكهما خطّت خطوات إلى الدّاخل، دخل أيمن وراءها ما إن أقفل الباب حتّى استدارت إليه وبعينيها رعب وهلع شديد. وضعت يدها على قفل الباب تحاول فتحه والهروب من هنا بأسرع ما يمكن، لكنّه كان مغلقا بالمفتاح الذي في يد أيمن، حاولت أخذ المفتاح منه لكنّه سحب يده بعيدا عنها.

ـ أريد الخروج من هنا.

ـ لماذا؟

جاء صوتها متوسّلا فقدت سيطرتها على نفسها.

ـ أرجوك أيمن أريد الخروج، أخرجني من هنا.

كان أيمن مستغربا ردّة فعلها هذه، لكنه أيقن حينها أنّ السّرّ مدفون هنا ولن يجده إلّا بهذا المكان.

ـ لماذا تريدين الخروج من هنا سهام لماذا؟

بصوت متقطّع وبعينين مغرورقتين أجابت:

ـ لأنّني أختنق لا يمكنني البقاء هنا أرجوك أيمن أخرجني من هنا.

أمسك كتفيها بيديه القويتين مثبّتا إيّاها، فبدأت بالبكاء.....

ـ أنظري إليّ سهام، أنظري إليّ.

نظرت إليه مستسلمة مفزوعة مرتجفة.

ـ لن نخرج من هنا حتّى تخبريني ما الذي حدث جعلك تهربين من حياتك ومن عائلتك ومنّي عليك إخباري بهذا السّرّ وإلّا سنبقى ولن نغادر.

انفجرت سهام باكيّة وقالت بصوت متوتر غاضب فاقد للسّيطرة وهي تصرخ:

لا أستطيع إخبارك ألا تفهم لا أستطيع إخبار أحد، ألا يكفي أنّني أتحمّل هذا الأمر وحدي منذ أربع سنوات لماذا لا تفهم أنّ لا أحد منكم سيمكنه تحمّل هذا الأمر؟

صرخ أيمن بها والغضب يملؤه:

ـ أنا أستطيع تحمّل أيّ شيء، أيّ أمر هذا الذي جعلك تحكمين على حياتنا دون أن تمنحيننا فرصة القرار والاختيار.

ـ لم يكن هناك أيّ اختيار، الأمر حدث وفقط.

ـ ما الذي حدث؟

ـ الأمر لا يخصك، يخصني وحدي.

عندها انفجر أيمن صارخا:

ـ لا يخصني أتظنين ذلك فعلا، زوجتي تركتني قبل زفافنا دون أن تذكر السّبب، تركتني أبحث عنها سنة كاملة وأنا في جحيم تخيّل ما حدث لها وما قد يحدث، لا أعلم أين هي، حطمت قلبي وأحلامي، أنت لم تكوني هنا لتري أيّامي الّتي مرّت في الرّكض بحثا عنها وليالي السّاهرة قلقا وحزنا عليها، لم تكوني هنا عندما كاد اليأس يقتلني، عندما كان الألم يمزق داخلي، لكنّ الأمر لا يخصني، صحّحي معلوماتك إذن الأمر يخصني ويخصني جدّا.

كانت دموع سهام تنزل شلالا وهي تسمع كلماته، أمسكها من كتفيها وأدارها بحيث تقابل عيناها مساحة البيت وسألها:

ـ ما الذي حدث هنا في هذا البيت، ما الذي حدث؟

ما إن أدارها حتّى وقعت عيناها على المكان الذي حدث فيه ما حدث، في هذه الصّالة بالذّات، على هذه الرّقعة بالذّات عادت إليها صورة ما حدث، زاد ارتباكها...

ونحيبها ثمّ انفجرت قائلة:

ـ اغتصبني في هذا المكان، هنا اغتصبني وبسببه ماتت والدتي.

ما إن سمع أيمن أوّل كلمة حتّى اعترته الدّهشة ثمّ الغضب وكأنّ السّماء أطبقت على رأسه، غضب كان يهدد بانفجار دماغه، أدارها إليه وهو يقول:

ـ من، من فعل ذلك؟

ـ زوجها، زوج أمي.

أفلتها أيمن غير مدرك للرّجفة التي اعترت جسدها ودموعها الّتي أغرقت وجهها، خطى خطوات بعيدا عنها

ـ أخبرتك أنّك لا تستطيع تحمّل الأمر.

بصوت مرتجف ممزوج بالغضب وهو يكزّ على أسنانه.

ـ لماذا لم تخبريني؟

أجابت ما بين شهقاتها....

ـ لأنك كنت ستقتله وتضيع حياتك بعدها، كنت قادرة على تحمّل ما حدث ولكن لم يكن بإمكاني أبدا تحمّل دخولك السّجن وضياع حياتك ومستقبلك.

ـ ليتك أخبرتني، فقتله لم يكن ليشفي غليلي.

قالت سهام بصوت فاتر بعد أن أنهكها الوجع:

ـ لذلك لم أخبرك.

مرّر أيمن يده في شعره بغضب ثمّ خطا خطوات سريعة وبدأ بضرب الجدار بقبضة يده، بدأ بالصّراخ ثمّ بضرب الجدار برأسه كالمجنون الذي فقد عقله كان....

محتاجا لإفراغ غضبه، لكنّ ذلك الحيوان مات منذ سنتين مات وهو سكران وقد نهشت الكلاب الضّالة لحمه، لم يجد أيمن سوى الجدار يفرغ غضبه فيه.

انكمشت سهام على نفسها ملتصقة بالحائط مرعوبة من منظره الغاضب بجنون، لا تعرف ما تفعله سوى البكاء بحرقة، حرقة سنينهما الضائعة هباءً منثورا.

عندما هدأ أيمن خرجا من البيت، داخل السّيّارة التزم كلاهما الصّمت، صمت مطبق مشحون بالغضب والألم لم يصعد أيمن إلى البيت ولم يعد إلّا متأخّرا جدّا حيث لا يراه أحد، دخل وأغلق عليه باب غرفته، في غرفتها جافاها النّوم كانت تترقّب عودته والقلق ينخر جسدها، عندما سمعت خطواته علمت أنّه عاد لا تعلم إن كان بخير المهمّ أنّه عاد وانفجرت بالبكاء من جديد.

أيّام وليال والغضب ينخر داخله، أيّام وليال وهو يعاني آلاما فظيعة في رأسه يكاد عقله يغادره بلا رجعة، يفكر في ما حدث لحبيبته، عجزه كان يقتله لو كان ذلك الحيوان حيّا لأفرغ غضبه لأراه أنواع العذاب كلّها قبل أن يقتله لاخترع من أجله طرق جديدة للتّعذيب، لكنّه مات، مات وترك هذا الغضب ينهش داخله

ليل نهار بدون هوادة، ما عساه يفعل ليطفئ ولو جزءً بسيطا من غضبه، كان يتحاشاها لم يكن قادرا على النّظر في عينيها وهذا الغضب يسكنه، لم يكن قادرا على مواجهتها بعجزه وكانت هي تبكي وتبكي ولا تجد سوى البكاء، كان يسمع بكاءها أحيانا في صمت اللّيل عندما يعود متأخّرا جدّا والكلّ نيام إلّا بكاؤها.

**********

استيقظ أيمن على وقع طرقات قويّة على باب غرفته، فتح الباب مسرعا.

ـ ماذا هناك يا أمّي.

أجابت أم أيمن بصوت مرتجف:

ـ سهام ليست بغرفتها، تركت هذه الورقة ورحلت.

أمسك أيمن الورقة وقرأها.

"لقد عدت إلى مسكني وحياتي

أرجوكم أنا بحاجة للبقاء وحدي"

صعدت الدّماء إلى دماغ أيمن.

ـ ليس مرّة أخرى هاته الفتاة المجنونة ألّا تعرف من الحلول سوى الهرب.

ـ ما الذي ستفعله يا بني؟

ـ سأعيدها.

ـ وإن لم ترغب.

ـ رغما عنها يا أمي هذه المرّة لن أسمح لها.

فتحت سهام الباب وتفاجأت باقتحام أيمن لبيتها ممسكا يدها يرجعها للوراء.

ـ أتريدين إعادة القصّة من جديد، تذهبين دون قول شيء ولا تتركين إلّا سطرين في ورقة، ألن تكبري أبدا، ألن تتعلّمي مواجهة الأمور، كوني شجاعة لمرّة واحدة في حياتك وواجهي.

سحبت يدها بقوة وهي تصرخ غضبا....

ـ الشّجاعة، ماذا تعرف أنت عن حياتي وعن شجاعتي؟ ماذا تعرف عن الأربع سنوات الّتي عشتها وحيدة أواجه هذا العالم بوحوشه الّتي لا ترحم؟ ألم أواجه الأمر وحدي لمدّة أربع سنوات.

صرخ أيمن غاضبا....

ـ لا أحد طلب منك ذلك، أنت اخترت أن تهربي وألّا تخبري أحدا.

ردّت والغضب يعتريها:

ـ وعندما أخبرتك ماذا فعلت أنت؟ آ، ماذا فعلت تجاهلتني وأقنعت نفسك بعدم وجودي؟.

عندها هدأ غضب أيمن قليلا وهو يقول:

ـ أنا لم أتجاهلك، منذ أكثر من أربع سنوات لم أستطع يوما أن أقنع نفسي بعدم وجودك، كلّ يوم مرّ كنت حاضرة بداخلي ومعي ولم أستطع يوما اقتلاع حبّك من بين أضلعي.

أجابت بصوت تملكه الحزن:

لكنّك اليوم ستستطيع بعد الذي علمته ستستطيع فأنت رجل عربيّ والرجال عندنا لا يقبلون على أنفسهم بحبّ امرأة دنّسها رجل آخر، حتّى لو كان الأمر ليس بيدها ولم يكن لها أيّ ذنب فيه، حتّى لو قاومته بكلّ ما أوتيت من قوة، لكنّه يبقى رجلا لا يعيبه شيء وتتحمّل هي الذّنب وحدها، ترمى وحيدة كأنّ بها داء معد لا أحد يقربها لأنّها امرأة مدنّسة.

كانت سهام تبكي بحرقة وهي تواصل حديثها:

سأريحك منّي ومن حمل عبئي ومن تأنيب ضميرك لأنّي أنا من سترحل، رحلت أوّل مرّة دون أن أخبرك، وها أنا أرحل اليوم عنك وأنت تعلم.

تقدّم منها وأمسك يديها وسألها:

ـ ألهذا السّبب فقط ترحلين اليوم؟

سألته بعينيها عمّا يقصده فأكمل:

ـ أنت لست مدنّسة وإن كنت رجلا عربيا فأنا رجل مسلم، ولا تزر وازرة وزر أخرى، أنا أعرفك وأعرف طهرك، هو لم يدنّسك هو آذاك ولكنّه لم يدنّس روحك الطّاهرة الّتي مازلت أراها في عينيك، إذا كان سبب رحيلك أنّك ما عدت تريدنني لأنّك توقّفت عن حبّي سأتفهم، غير ذلك لا يمكنني فهم أيّ سبب آخر.

زادت دموعها نزولا وقلبها انقباضا وهي تقول:

هناك سبب آخر أنا لم أعد قادرة على العيش معك في بيت واحد، أنت فيه منّي بهذا القرب وبهذا الجفاء. غاضب منّي لدرجة إنكار وجودي وأنا أترقّب منك نظرة أو كلمة، هذا الأمر يقتلني أكثر مما حدث معي، أنا منذ رحلت أوّل مرّة رحلت لأنّني أحبّك وأرحل الآن لأنّني أحبك ولم أعد أقوى على جفائك القاسي وبعدك القريب، أنا منذ أكثر من أربع سنوات وأنا لا يحي بداخلي إلّا حبّي لك، حبّك هو ما يبقيني على قيد الأمل. وعلى قيد الوجع .

أمسك أيمن بوجه حبيبته ودموع في عينيه يجاهد من أجل منعها من السّقوط.

ـ أنا كنت بعيدا لأنّي خفت إن اقتربت منك أن أحرقك بنار حبّي الّتي لم تنطفئ يوما وزاد اشتعالها نار غضبي عند رحيلك، كنت غاضبا لأنّني ظننت أنّ حبّك لي لم يكن كافيا لإعطائك القوّة على مواصلة الحياة معي ومن أجلي.

ـ ولكن عندما أخبرتك بما حدث ابتعدت أكثر.

ـ لأنّني كنت غاضبا، كنت غاضبا لدرجة لم أعد أستطيع فيها القرب من أحد كنت غاضبا من ذلك الوحش الذي افترسك ومات تاركا إيّاي أمام عجزي عن فعل أيّ شيء، كنت غاضبا على القدر الذي سمح بحدوث هذا لك وكنت غاضبا على نفسي لأنّني لم أر شيئا من هذا.

ـ لا أحد كان يمكنه أن يرى ذلك، لقد كتمته بداخلي فلم يحرق سوى روحي وقلبي أنا ولم تخرج ناره للعيان.

ـ أنا كان يجب أن أرى لولا غضبي وأنانيتي.

أنا رحلت ولم أدعك ترى لو كنت بقيت لكنت رأيت و أنا رحلت حتّى لا ترى.

ـ لو كنت بقيتي لكنت داويت جراحك، لكن الحياة لاتزال أمامنا وأعدك أنّني سأداوي كلّ جراحك سأحبّك حتّى أطفئ كلّ آلامك وأعيد بريق الحياة الذي انطفأ في عينيك، سأعيد نور الضّحكة الّتي ماتت على شفتيك.

ـ لكن ذلك لم يعد ممكنا.

ـ لماذا؟

ـ لا يمكنك الارتباط بي بعد الذي أخبرتك به.

أخذ أيمن وجه زوجته بين يديه ونظر إليها نظرة ملؤها الحبّ والحنان.

ـ أنا أحبّك لطالما أحببتك ولا يهمني ماحدث، ما حدث لم يكن لك أيّ ذنب فيه ثمّ أنا لن أرتبط بك، أنا مرتبط بك قبل أن أولد وقبل أن أكون، أنا زوجك.

انفرجت أسارير وجهها فرحا ودموعها تجري وديانا فكان وجهها كقوس قزح تعانقت فيه الشّمس بالمطر.

ـ أمازلت تحبني بعد الذي كان؟

ـ بل أعشقك ولم أتوقّف يوما عن حبّك، ماضيك سيبقى سرّنا وأنا لا أنوي إثارته مستقبلا، سنغلق الباب عليه هنا بعد خروجنا من هذا البيت، عندما ذهبت ذهبت روحي معك ولم أعد قادرا على الحياة بعدك، فأنت عمري وحياتي، أنت زوجتي وحبيبتي، أنت وجعي وفرحي، أنت قدري واختياري.

ـ وأنت عمري وفرحي القادم الذي سيمحو خطوط ماضيَ الظّالم ويمحو ذكرى آثام الزّمان .

ارتمت سهام في حضن أيمن الذي أخذ يضمّها ويقبّلها بعمق جراح السّنوات الّتي مضت وبشغف الانتظار الذي طال، بحجم الألم الذي عايشاه وبعمق الأمل الذي بدت بوادره، بكبر الحبّ الذي قاوم في قلبيهما رغم قسوة القدر هي تعشقه ومازال هو يحبّها رغم ما كان.

تمت في ماي 2016

# خطوات قلب مكسورة

كانت هائمة هناك في أوّل يوم لها تحاول إيجاد صفّها في جامعة طويلة عريضة حيث تسعى لإكمال دراساتها العليا في بلد أجنبي تتقن لغته ببراعة لكنّها تحسّ بالغربة فيه بعيدا عن أهلها ليرنّ هاتفها فتدخل يدها في حقيبتها تبحث عنه لتجيب...

سقطت الحقيبة وتناثرت محتوياتها على الأرض انحنى يجمع أشياءها لتتمتم هي كلمة شكرا باللّغة الفرنسية. رفع نظره إليها وهو يقول بلغة عربيّة "العفو" وقف يسلمها حقيبتها ويمد يده لها.

ـ أنا قيس أظنّ أنّك عربيّة من حجابك أليس كذلك؟؟
ابتسمت وهي تمد يدها مسلّمة.
ـ بلى، أنا ليلى.
اتّسعت عيناه وهو يقول:
ـ أنت تمزحين أليس كذلك؟؟
أجابته ضاحكة...
ـ بخصوص ماذا؟
ـ إسمك ليس ليلى
ـ بلى.
ردّ مازحا:
ـ يا للصّدفة قيس يقابل ليلاه...
ردّت في ابتسامة خجولة وهي تتيقن من لهجته أنّه جزائري أيضا.
ـ لكنّني لست ليلاك...
ابتسم ينظر إلى وجهها ليشدّه خجلها وتلك الحمرة الخفيفة الّتي كست وجنتيها.

طالبة دراسات عليا في جامعة السّوربون العريقة بفرنسا، تلبس الحجاب ضاربة بتعصّب هذا البلد الذي يدعي الحرّيّة عرض الحائط، غير عابئة بمن ينظر إليها ويفسّر حجابها تخلفا في بلد هو موطن الأزياء والزّينة، لكنّها تخجل من مزحة غريب ألقاها عبثا في محض صدفة.

كانت تجلس في مكانها في المدرج عندما رفعت رأسها لتجده داخلا ليجلس في أوّل الصّف تراه هي ولا يراها. بدا لها أطول وهي تراه من بعيد تأملت كتفيه العريضتين وهو يعطيها ظهره جالسا ثمّ ما فتئت أن أبعدت عينيها ناهرة نفسها عن هذا الذي تفعله، ما هو إلّا زميل وضعته الصّدفة في طريقها قبل أن يضعه طلب العلم في نفس صفها.

كانت تسبقه دائما عن غير قصد ولا تخطيط إلى المدرج وتراه دائما داخلا محتلا نفس المكان الذي يبقى فارغا بانتظاره، كأنّ الجميع يعلم أنّه مكانه ولا يتجرّأ أحد على الجلوس فيه، تحيطه تلك الهالة الغريبة عندما يدخل فتقترب منه مجموعة من الشّباب بين الذّكور والإناث كلّ يبتغي إثارة اهتمامه أو مجرد لفتة منه، شخصيّة غريبة تسحر من يقابلها دون أن تجد لذلك تفسيرا، بينما يضحك هو مع هذا ويبتسم لتلك ويلقي دعابة ينفجر الجميع لها ضاحكين، عيونهم معلقة به وهي تراقب هذا الحدث متسائلة ما الذي يميزه، كانت تقاسيم وجهه عادية، أنف شامخ، عينان بنيتان وشعر أسود قصير، لماذا بهذه الملامح العادية ينجذب إليه هؤلاء بأشكالهم وجنسياتهم المختلفة
أوّل يوم في الأسبوع، استيقظت متأخّرة ولم تجد سيّارة أجرة إلّا بعد وقوفها عشر دقائق في انتظارها، دخلت مسرعة بالكاد ثواني قبل دخول المعيد، رمت نفسها على أوّل كرسي فارغ قابلها كيفما

كان، تستعيد انتظام أنفاسها التي كادت تنقطع من الرّكض، بعد انتهاء المحاضرة كانت تجمع أشياءها تستعد للمغادرة، عندما سمعت صوتا بنكهة جزائريّة لم تخطئ صاحبها.
ـ أنتِ معي بنفس القسم.
رفعت رأسها تنظر إلى وجهه وهي تجيب:
ـ نعم.
ـ كيف لم أركِ من قبل؟
ـ لأن الذين يحيطون بك كثيرون لا يدعون لك مجالا لرؤية من هم أبعد عن دائرتك .
ارتسمت ابتسامة على جانب شفتيه وهو يقول:
ـ هذا يعني أنّك لاحظتني قبلا وعرفت أنّنا معا بنفس الصّفّ.
أومأت برأسها إيجابا، غير قادرة على الإنكار وقد فضحت نفسها.
ـ لم لم تتحدثي إليّ؟
ـ لأقول ماذا؟
ـ أنّنا في نفس الصّفّ نحن من بلد واحد وقد يحتاج أحدنا للآخر.

**********

في اليوم التّالي دخل وعينيه تبحثان عنها، اتّجه إليها مباشرة وعيون مجموعته تتبعه.
ـ صباح الخير يا ابنة بلدي.
ابتسمت في رقّة خجلى مدركة لعيون ترصدهما وأخرى تحسدها.
ـ صباح الخير.
ـ كيف أصبحت اليوم.
ـ بخير و أنت ؟
ـ عرفت أياما أحسن لكن الحمد لله.
رمى جوابه بداخلها فضولا فسألته.
ـ ما الذي عكر يومك.

أجاب مبتسما سأضطر لترك الصّفّ الأوّل لأحرس ابنة بلدي.
رمقته بنظرة متفحّصة تحاول معرفة مقصده.
ـ ابنة بلدك فتاة راشدة لا تحتاج لحراسة.
اتّسعت ابتسامته وهو يقول:
ـ إذن سأترك الصّفّ الأوّل لتحرسني ابنة بلدي.
ارتفع حاجبها الأيسر متعجّبة.
ـ وكيف ستحرسك وممّن؟
أجابها في خفوت كأنّه يخشى أن يسمعه أحد.
ـ أترين تلك المجموعة... لا تنظري تلك الّتي ترينني معها كلّ صباح.
أومأت برأسها إيجابا وسمعته يواصل في نفس النّبرة.
أترين تلك الفتاة الّتي ترتدي الأحمر.
سكت ينتظر إجابة...
ـ كيف يمكن أن أراها وقد قلت لي ألّا أنظر.
هزّ رأسه وهو يقول:
ـ يمكنك الآن أن تنظري، لكن ليس مباشرة، تعلمين تظاهري أنّك تنظرين إلى الأمام ومرري نظراتك عليها وكأنّك غير عامدة النّظر إليها.
بدل أن تنظر إلى الفتاة فتحت عينيها تنظر إليه هو في دهشة واستغراب من هذا الكائن الغريب الذي جاءها صباحا يقصّ عليها قصّة غريبة لم تصل إلى معناها بعد ويعلّمها كيف تحتال لتنظر لتلك الفتاة الّتي لا تعرف دورها في قصّته الطّويلة، جاءها صوته مستنكرا:
ـ قلت لك الفتاة، هل أشبه أنا فتاة أو ربّما أرتدي الأحمر؟
أحنت رأسها تتأمّله وقد أشرقت ابتسامتها لجملته لا لم يكن فيه شيء يشبه الفتاة.
ابتسم هو من غير وعي وكأنّ ابتسامتها معدية وهو يقول:

ـ هل ستنظرين إلى الفتاة لأكمل القصّة أو نتركها لبعد الحصّة، المعيد سيدخل بعد دقائق معدودة
أدارت رأسها وجالت بناظرها حتّى وقعت عيناها على صاحبة الأحمر الّتي كانت ترمقها شزرا كأنّ بينهما ثأرا تريد أن تخلصه منها فأشاحت ليلى بنظرها عنها لتعود به إلى وجه محدّثها.
ـ ما بها؟
ـ مِن تلك؟
أجابته في عدم فهم وقد ضاع منها تسلسل حديثهما.
ـ لم أفهم؟
ـ ستحمينني من تلك، فهي تريد توريطي معها وقد حذرتني والدتي وأوصتني ألا أعود لها بأجنبيّة بعد نهاية دراستي وأنا أشكّ في أنّها ستختطفني إذا واصلت في تجاهلها، ستطلب من والدتي أن تزوّجني بها مقابل تحريري.
فتحت ليلى عينيها غير مدركة مقصد هذا الكلام الغريب، أكان جادا أم مازحا أو ربّما مجنونا، كلماته كلّها لا رابط لها، كيف ستحميه وما دخل والدته في الموضوع، أهو جاد في تفكيره في أمر الاختطاف هذا
كان وجهه حازما يوحي بالجدية، بينما كان هو يخلط كلامه الجاد بالهزل فقد كان يتهرب من صاحبة الرّداء الأحمر أما بقية الحديث فقد كان مازحا فيه.
دخل المعيد فجأة قاطعا عليهما فرصة مواصلة الحديث وفوجئت به يجلس بجانبها ليمر الدّرس وهو في حالة متابعة صامتة كأنّه تحوّل لشخص آخر غير ذلك الذي كان يحكيها قصصا لا علاقة لها بها ولا بالواقع.
ما إن انتهى الدّرس حتّى التفت إليها ليعود ذلك المجنون الذي كانه قبل بداية الدرس.
ـ إنّها قادمة باتجاهنا لا تنسي حديثنا.

وقف يستقبل جماعته مبتسما مرحبا والتفت يعرفهم على ليلى "ابنة بلده ورائحة موطنه"
وجدت ليلى نفسها في موجة من التّرحيب والتّعريف بأسماء عديدة من بلدان مختلفة لتصل إلى نظرات قاتمة وابتسامة مفتعلة من صاحبة الرّداء الأحمر "جسيكا" الأمريكيّة صاحبة العيون الرّماديّة المخيفة لتبتسم وهي تتذكّر كلام قيس وتعذره على خوفه من أن تختطفه، لقد كانت نظراتها مخيفة فعلا.

**********

نشأت بينهما صداقة جميلة بعد ذلك، أدخلها في جماعته الّتي تقبلتها بكلّ بساطة عدا صاحبة العيون الرّماديّة المخيفة الّتي بدا لها جليا أنّ إعجابها بقيس يفوق إحساس الصّداقة والّتي كانت ترى في اهتمام قيس بليلى تهديدا لها، لكنّ هذا الأخير رغم إدراكه لمشاعرها ونواياها لم يشجعها يوما أو يعطها إحساسا كاذبا، كان هو يحيط ليلى برعايته كأنّه يريد حمايتها في بلد غريب، شعرت معه بالأمان كأنّه أحد أقربائها، أدركت عنده حسّ الدّعابة وعرفت سرّ جاذبيته كان شخصا مستقيما مبتسما متفائلا، خدوما لا يتأخّر عن أحد يطلب مساعدته ويقدّمها أحيانا كثيرة حتّى لمن لم يطلبها، عرفت أنّه من عائلة بسيطة متوسّطة الحال وأنّه حصل على منحة لإكمال دراساته العليا هنا في أرقى وأعرق جامعة بفرنسا ولولا سنوات كدّه وجهدّه الطّويلة ما كان قادرا يوما على الوصول إلى هذا المكان، بينما كانت تخبره في إحراج أنّ والدها يتكفّل بمصاريف دراستها وإقامتها هنا ليبتسم هو مدركا لحرجها مؤكدا لها أنّ الغنى ليس عيبا.

جاءت إجازة الصّيف وعاد كلّ إلى أهله أحست بفراقه يلهب كبدها شوقا إليه واكتشفت في خوف وجزع أنّها تحبه، لكنّها كانت

متأكدة أنّه يعاملها كأخت صغرى تحتاج إلى الحماية، مسؤول هو عنها في غربتها بعيدة عن أهلها، كتمت حبّها بداخلها غير قادرة على البوح به ولا على تجاهله، كان سرّها الذي لا يعرفه سوى خالقها وما كانت تعتزم البوح به حتّى لنسمات الهواء الّتي قد تحمل هذا السّرّ إليه.

انتهت الإجازة وها هي العودة حيث يكمن سرّها. يشاركها فيه جمع كبير من الطّلبة مشدودين لشخصه يبهرهم تميزه ويأسرهم تواضعه.

ألقى عليها صباحا السّلام فاهتز قلبها، كأنّه هو الصّباح بعينه وما الدّنيا بدونه إلّا مساءات مظلمة
ـ كيف كانت إجازتك؟
ـ جيّدة وأنت؟
ـ لا بأس بها بين أحضان البحر وحضن الوالدة.
ابتسمت بينما كان هو يتفحّصها.
ـ وكأنّ وزنكِ نقص...
ردّت متهرّبة من الإجابة:
ـ على عكسك أنت وكأنّ وزنك زاد قليلا.
ضحك واضعا يده على بطنه يتحسّسه، لم تكن كرشا إنّما نتوء صغير بدأ يظهر تحت قميصه.
ـ إنّه ذنب الوالدة لم تترك أكلة تقليديّة إلا وطبختها وأغلبها من العجائن، لكن لا تقلقي حصّة رياضة مع يومي سباحة وسأزيلها وأعود كما كنت.
بقيت تنظر إليه مبتسمة غير قادرة على إيجاد كلمات أخرى تقولها، شاردة في تفكيرها تسأل نفسها ما الذي يأسرها في هذا الرّجل ويجعل حياتها تنقلب رأسا على عقب، لماذا يهتزّ قلبها

بداخلها كقارب تتلاعب به الأمواج كلّما رأته أو تذكّرته بينما قطع صوته شرودها.
ـ هل أنت بخير؟
استغربت سؤاله.
ـ نعم، لم تسأل؟
ـ لأنّي أعدت الجملة ثلاث مرّات دون أن تجيبي وعيناك تائهتان بعيدتان رغم تواجدك هنا.
في تلك اللّحظة هجم عليهما أربعة من جماعته يعلو صوتهم مرحبين، مازحين ومتسائلين، كلّ يحكي عن عطلته ويسأل عن عطلة الآخر، اندمج هو في الحديث معهم بينما كانت هي تحاول السّيطرة على مشاعرها وغيرتها وهي ترى صاحبة العيون الرّماديّة المخيفة تضع يدها على ذراعه المكشوفة تمررها صعودا ونزولا في تودد واضح، بينما يحاول هو سحبها ليضعها وراء ظهره متظاهرا بعدم إدراك معنى حركاتها ولا هدفها أسقط قلمه عامدا وانحنى يحمله مستغلا الفرصة ليغير مكانه مبتعدا عنها، لتشتعل عيونها الرّماديّة غضبا بينما ترتسم ابتسامة عريضة على شفتي ليلى، ابتسامة انتصار وفخر تجيب عن تساؤلاتها السّابقة وصوت بداخلها يردد لذلك تعشقينه أيّ رجل مكانه ما كان أضاع عليه فرصة المتعة الّتي يمكنها أن تمنحه إيّاها جسيكا دون أيّ التزام ولكن ليس هو ليس قيسها الذي اكتشفت أنّه امتلك قلبها واستحوذ على حواسها لكنّها تعلم يقينا أنّه لن يكون يوما ملكا لها ولن تكون هي ملكا له، عادت نظرات الحزن تغطي عيونها بينما يسترق هو النّظر إليها يرى تحولاتها بين لحظة وأخرى من عيون مبتسمة إلى تلك الحزينة الّتي يراها الآن دون أن يدرك سببا لهذا الحزن المرسوم على وجهها.

**********

مرّت السّنة الجامعيّة الثّانيّة على ليلى العاشقة الّتي تكتم حبّها طويلة مريرة يطير قلبها محلقا كلّما لمحته، ليعود كسيرا وحيدا غير قادر على البوح بهذا الحبّ ولا على كتمانه، لم تحاول يوما التّلميح بحبها بل سعت بكلّ ما أوتيت من قوة إلى إخفاء هذا الوله به ولو استطاعت أن تكتمه عن نفسها لفعلت، كانت النّيران تشتعل بداخلها شوقا إليه، هياما به، لكنّها تعلم أنّه محرّم عليها تتمنى لو لم تضعه الأقدار في طريقها، لو لم تعرفه يوما، لو بقي قلبها على جهله صحراء جرداء لم ينبت فيها حبّه لكانت الآن تكمل طريقها دون أن يحرقها قربه حاولت الابتعاد عنه مدعيّة انهماكها بالمذاكرة بينما كان يحاول الاقتراب أكثر غير مدرك لسبب ابتعادها.

عندما كانت السّنة تقارب على نهايتها أحسّت بتغيّر معاملته لها، أصبح أكثر قربا أكثر حرصا، أكثر غيرة. يمنعها من الكلام مع هذا وذاك يبرر ذلك بأنّها غريبة وقد يطمع فيها أصحاب النّفوس الفاسدة ضاقت به وبتصرفاته وتشاجرت معه.

ـ لست مسؤولا عنّي يمكنني حماية نفسي لست قاصرا ولا غبية.

ـ أعلم ذلك لكنّك فتاة بريئة والرّجال هنا لا يرون في المرأة إلّا جسدا ل ...

توقّف عن الكلام غير راغب في خدش براءتها يراها الطّهر بعينه، فلا يرغب بتدنيسها بمجرد كلمة

ـ لماذا؟ أكمل الجملة....

عندما رأته ساكتا يصارع كلماته حتّى لا تخرج من بين شفتيه أضافت هي....

ـ ليشبع غرائزه أليس هذا ما تريد قوله؟

لا يدري لماذا أوجعته كلماتها وكأنّه تخيلها فريسة لأحد هؤلاء الرّجال.

ـ أنت لا تعرفين تفكير الرّجال لو كنت تعلمين لما تحدّثت بهذه الرّاحة مع كلّ من التقيتهم وكأنّك تعرفينهم منذ زمن طويل.

احتقن وجهها وهي تسمع كلماته هذه.
ـ أريد أن أذكّرك أنّ هؤلاء الرّجال أنت من عرفتني بهم، وأنت من أدخلهم في حياتي، كما أنّني لا أتحدّث مع كلّ من التقيته، ضف إلى أنّ كلماتك ليس لها إلّا معنى واحد أنّك تشكّك في أخلاقي وهذا شيء لا أقبله
فغرّ فمه مرتعبا، كيف وصل الحديث بهما إلى هنا؟؟؟
ـ أنا لم أقصد ذلك.
ـ اسمع يا قيس أنا فتاة حرّة، لا أحد عينك وصيّا عليّ وتصرفاتي لا تعنيك في شيء لذا لن أقبل منك مجدّدا أن تتدخّل في حياتي أو تشكّك في تصرفاتي.
تركته واقفا هناك يأكله الغضب، افترقا وقد تحيّز كلّ لكبريائه...
ابتعدت عن جماعته وكان هذا نصرا عظيما أهداه غباؤهما لصاحبة العيون الرّماديّة المخيفة الّتي كانت قد يئست من فرصتها مع قيس لتجد الباب يفتح من جديد وقد خرجت ليلى من حياتها ومن حياة قيس.
مرّت إجازتها الصّيفية قاتمة تجرّ أذيال الخيبة، لقد تعمّدت أن تكون قاسيّة معه تعمّدت إبعاده عن حياتها، لكنّها لم تستطع إخراجه من قلبها وكان هذا الأمر يقتل فيها الرّوح يوما بعد يوم، انتهت الإجازة وعادت إلى الجامعة في أوّل يوم لها وجدته بانتظارها مقبلا إليها يحمله الشّوق على جناح الأمل، بثها حبّه ولوعة قلبه في غيابها قلبه الذي خاصمه لأنّه خاصمها، لكنّه فوجئ بها ترده وتخبره أنّ ما بينهما لم يتعدّ يوما الصّداقة.
ـ ما أشعر به لا يمت بصلة للصّداقة ربّما بدأت الأمور هكذا بيننا لكنّني أعرف شعوري جيّدا وأميز بين الصّداقة والحبّ.
ـ أنت تتخيّل أنّك تحبّني لأنّنا افترقنا بتلك الطّريقة لكن ما تشعر به ليس حبّا.
فقد سيطرته على أعصابه وهو يقول في صوت عال.

ـ لا تفقديني أعصابي ليلى، أتظنين أنّني طفل صغير لا يميّز بين الحبّ والصّداقة.
تردّدت قليلا قبل أن تقرر أن تضربه بالقاضيّة لعلّه بعدها يكرهها فيشفى منها.
ـ حسنا إذن أنت حرّ في مشاعرك، لكنّني لا أكن لك أيّ شعور من هذا الذي تدعيه وترغب به وحتّى صداقتنا انتهت قبل العطلة، ما أنت إلّا عابر مرّ في طريقي لم يترك سوى ذكرى باهتة ستمحى مع مرور الأيّام.
نظر إليها غير مصدّق هذا الذي يسمعه منها كلّ هذا الوقت لم يستشف ولا مرّة أنها تخفي هذه القسوة بداخلها. كيف لامرأة كان يرى فيها براءة الدّنيا أن تنحره بهذه الطّريقة غير عابئة حتّى بشحذ سكينها، كيف لها أن تقابل حبّه بهذا الجفاء غير محاولة حتّى تلطيف كلماتها وهي تخبره أنّها لا تبادله نفس الإحساس.
ـ أعتذر عن اقتحامي حياتك وأعدك أنّني سأمنع حتّى طيفي من تعكير صفو أيّامك.
تركها واقفة وانصرف رافعا رأسه بشموخ يداري سقطته بينما جرحه كان غائرا ما استطاع مداواته بعد ذلك اللّقاء، نزيفه يكاد يقتله وكبريائه توجعه، تنظر إليه من بعيد لا تقدر على القرب منه وهي تعشقه ولا على البعد عنه وهي ترفضه تغادرها كلّ حواسها إليه لتتركها جسدا بل روح وتعود إليها لائمة غاضبة تحملها مسؤوليّة هذا الحرمان الذي يضطرّها إلى التّشرد ركضا وراءه.
في تلك الأثناء تعرفت ليلي على لينة، فتاة جزائرية أيضا نشأت بينهما علاقة طيبة لكن رغم ذلك لم تصارحها ليلى يوما بعلاقتها السّابقة ولا بحبّها لقيس.
قبل نهاية السّنة الأخيرة فاض حنينها وغلبها يأسها إدراكها بأنّها لن تراه مرّة أخرى كان يقتلها ويفقدها توازنها تقدّمت منه تريد توديعه قبل الرّحيل تستودعه قلبها وأحلامها وروحها رفض

الحديث إليها استدار تاركا إيّاها مع ألمها، لازالت كبرياؤه توجعه وحبّه لها يعذبه مازال رفضها له بتلك الطّريقة يؤرقه.
افترقا وفي قلبها غصّة لم تكن قادرة على البوح له بسرّها أرادته أن يكرهها، وها قد فعل لم تعد تعني له شيئا انتصر كبرياؤه على حبّه، ذلك ما كانت تبتغيه فلماذا ترفض روحها التّعايش مع هذه الفكرة؟
في أرض الوطن جاءته لينة تخبره أنّ ليلى تريد رؤيته، رفض وهو يخبرها أنّه لم تعد تربطه بها أيّة صلة أخرجت رسالة من حقيبتها وسلمتها له، فتحها ليجد فيها دعوة زفاف فتح البطاقة يقرأ الاسم لتتوقف حواسه مصدومة وهو يقرأ اسمها على البطاقة، جاءه صوت زائرته ليوقظه من صدمته "عرسها الخميس المقبل حزينة هي تريد أن تراك"
عادت إليه ذكرى أوّل لقاء عندما قال مازحا "قيس يقابل ليلاه" لم يكن يعرف أنّ الأقدار تخطّها "قيس يفقد ليلاه".
تخيّلها زوجة رجل آخر فعصفت به حواسه حتّى كادت تسقطه أرضا ألهذا كانت تصدّه ألأنّها كانت مخطوبة؟ كيف لقلبه المفجوع أن يراها تزفّ إلى رجل غيره؟ من أين له بتلك الشّجاعة ليقابلها وهي على أعتاب الارتباط برجل آخر؟؟؟

**********

كان يقف قبالتها ينظر إليها بعينين حانقتين تطلقان سهام ناريّة والغضب يملؤهما، من ينظر إليهما لا يملك إلّا أن يخشى صاحبهما في هذه اللّحظات، إلّا هي كانت تعرف هاتين العينين وما تخبئانه من حبّ كبير ووجع دفين نطق أخيرا وهو يحاول السّيطرة على غضبه:

ـ لماذا لم تخبريني أنّك كنت مخطوبة؟ لماذا تركتني أتعلّق بك وأنت قدرلرجل آخر؟؟ لماذا تطلبين رؤيتي قبل أسبوع من زواجك أتريدين أن تتأكّدي من نصرك؟؟ أتريدين قتلي؟؟

انطلقت كلماتها تفنّذ ما قاله.

ـ حبيبي أرجوك...

ـ حبيبي، كيف تنطقينها وأنت ملك لرجل آخر؟

ـ أنا ملكك أنت وحدك هو سيملك جسدي أمّا قلبي فهو لك.

ارتفع صوته يسكتها

ـ أسكتي لا تزيدي الجرح جرحا آخر، أتظنين أنّ هذا الكلام سيطمئنني كيف سأعيش وأنا أعلم أنّك تمنحينه في كلّ ليلة ما كان يفترض أن يكون لي، لي أنا.

سكتت والألم يعصر قلبها كيف سيعيش بل كيف ستعيش هي، وهي تمنح الآخر جسدها كلّ ليلة، بينما روحها تحلق في سماء رجل تملكها وأسر قلبها، فما عادت تملك زمام حياتها أخرجها صوته الهادر من تفكيرها.

ـ تزوجيه، تزوجيه وعيشي حياتك معه وأنا سأنساك سأحبّ امرأة أخرى أجمل منك، أنقى منك وأصدق منك. سأعرف سعادة العيش في كنف امرأة أحبّها وتعشقني لكنّك لن تعرفي هذا الإحساس أبدا لأنّني سأقض أحلامك في كلّ ليلة وأنت تتخيّلين كيف كانت حياتك لتكون لو كانت معي؟

تهاوت دموعها غير قادرة على البقاء صامتة وسط زحام قلبها الذي يعلو نحيبه وصوتها المتكسّر لا يطاوعها على قول ما تريد.

ـ دعني أشرح لك.

رفع يده في إشارة حازمة ليسكتها عن الكلام.

ـ لا أريد أن أعرف شيئا، إنّ امرأة باعتني قبل أن تكسبني لا تستحق منّي لحظة ألم وليس لديها عندي فرصة النّدم.

استدار وتركها واقفة هناك يتحطّم داخلها ويسقط كقطع زجاج صغيرة متناثرة يصعب جمعها ويستحيل إلصاقها من جديد.

تتهاوى حياتها أمامها كثوب بالٍ تلقيه صاحبته في الرّكن البعيد.

تدور بها الدّنيا من حولها وقد صار للوجع طعم آخر طعم الحرقة والوعيد.

كيف ستعيش بعده وقد فاجأها حبّه بعد ترقبٍ كصباح يوم عيد.

ثمّ تركها للوحدة من جديد.

حملت قدماها تعود لخيباتها المتتاليّة من يوم أدركت حبّه وهي موعودة لرجل آخر اشتراها كما يُشترى العبيد

تنطفئ روحها رويدا رويدا كنهاية محتومة في آخر القصيد.

بعد لحظات كانت سيّارة الإسعاف تخترق الطّرقات لتوصلها إلى المستشفى وقد تهاوى جسدها بينما هي في عالمها ترفض بعده أن تعيش...

**********

كان الأطباء يحيطون بها من كل جانب يحاولون إسعافها وإعادتها إلى الحياة، والدها بالخارج يكاد يفقد عقله خوفا على وحيدته، والدتها منهارة وخطيبها يترقّب في صمت وهدوء غريبين تجاوزت مرحلة الخطر، لكنّها صامتة لا تنبس ببنت شفه، أخبرهم الطّبيب أنّها تعرضت لصدمة نفسيّة و يرفض باطنها الكلام، ألغي العرس وأجّل لوقت غير معروف، حاول والدها إيجاد السّبب في أزمتها النّفسيّة، سأل خطيبها وألح عليه، سأل والدتها الّتي نفت علمها بأيّ شئ، ألح في البحث والسّؤال، عرف أنّها قبل خروجها ذلك اليوم زارتها صديقتها لينة خرجت هي بعدها بدقائق، اتّصل بلينة وسألها، ألحّ عليها حاصرها حتّى اعترفت له بأنّها أوصلت بطاقة عرسها لشخص يدعى قيس وأنّها كانت على موعد معه قبل أن يحدث ما حدث أخذ منها العنوان وانطلق يبحث عن هذا المجرم الذي أسكت صوت صغيرته.

كان هو يقاوم رغبته في الصّراخ حتّى يسمع العالم غضبه يحسّ بيد صنعت من الوجع تشدّ على قلبه تضغط عليه تمنعه من التّنفس دخل غرفته وأغلق عليه بابه يشدّ قبضته ويضرب بها سريره، كيف لقلبه الأحمق أن يحبّها كلّ هذا الحبّ الذي لا تستحقه، كيف له أن يتحمّل صورتها في حضن رجل آخر، تلك الصّورة الّتي تطرق على قلبه طرقا كمن يعذب في غرفة منفردة

بقطرات الماء المتواصلة ، كيف سينساها و قد سكنته روحها فما عاد يميز روحه من روحها، انطلقت من أعماقه صرخة صامتة يكتمها حتّى لا يسمعه من بالبيت ألمه يكاد يفتك به، لماذا يوجعه حبّها، هي الخائنة الّتي علقته بها وهي مخطوبة لرجل آخر، تريد أن تشرح له. ماذا تشرح له أسبوع قبل زفافها؟ ولماذا تشرح له؟ لا لقد جاءت لتشاهد بعينيها ضعفه وذلّه، لكنّه لم يمنحها الفرصة، لم يُرها ألمه، لم يرها انكسار روحه، كان لديها كلّ الوقت لتشرح عندما اعترف لها بحبّه في الجامعة ، لكنّها رفضته وأبعدته، تركته يعاني في صمت غير آبهة بآلامه الّتي صنعتها هي، الآن جاءت تشرح قبل أسبوع من عرسها.

تعاوده الذّكريات تصرّ على فتح جروحه، أوّل لقاء لهما ضحكاتها همساتها غضبها ورضاها وتعصف به صورة دموعها في موعدهما الأخير، ما الذي كانت تبكيه، حبّه الذي لم تستحقه أم قسوته الّتي صدمتها، يا إلهي لماذا لا يزوره النّسيان لماذا لا يستطيع اقتلاعها من قلبه كما يقلع الضّرس المسوّس من الفم، لأنّها ليست ضرسا، إنّها ورم خبيث يزرع عروقه في جسده كلّه ينخره حتّى يقضي عليه، لماذا يسكنه هذا الوجع الذي يخفيه عن العالم.....

**********

كان قيس يخرج من بيته ليتفاجئ بصوت هادر يسأله...

ـ أأنت قيس؟

ماكاد ينطق بنعم حتّى فاجأه الرّجل بلكمة على وجهه ثمّ هجم عليه يشدّه من تلابيب قميصه لم يستوعب قيس هذا الذي يحدث إلّا وصوت الرّجل يأتيه من جديد....

ـ مالذي فعلته بابنتي حتّى أسكت صوتها، ما لذي فعلته بصغيرتي؟؟؟

عن ماذا يتحدّث هذا المجنون؟؟

ـ من ابنتك هذه لابد أنّك مخطئ في الرّجل.

ـ لا، لست مخطئا ما الذي فعلته بابنتي حتّى كادت تفقد حياتها، ترقد الآن في المستشفى غير قادرة على النّطق بكلمة ما الذي فعلته بليلى عندما قابلتها...

ما إن سمع اسمها واستوعب وعيه أنّها في المستشفى حتّى ارتجف فاقدا لتوازنه وكاد يسقط لولا أن ضغطت عليه يدا الرّجل تمسكانه، ارتسم الألم على وجهه وهو يسأل في صوت خائر...

ـ ما الذي حدث لليلى هل هي بخير؟

كان الرّجل ينظر إليه مستغربا ردّة فعله هذه، لا يمكن لهذا الوجع على وجهه أن يسمح له بأذية ليلى لا بد أنّ في الأمر إنّ.

دخل الرّجلان سيّارة والد ليلى وبدأ قيس يقصّ على والدها ما حدث بينهما من يوم عرفها في أوّل يوم لها في الجامعة إلى آخر لقاء لهما، يعري روحه أمامه ويحكيه ألمه من خيانة ابنته الّتي

أخفت عنه أنّها مخطوبة ثمّ أرسلت له بطاقة عرسها تطلب منه رؤيتها وغضبه منها وقسوة كلماتها الّتي واجهها بها.

أدرك والد ليلى أنّ سبب حالة ابنته ليس ما فعله بها هذا الشّاب فقط رغم أنّه يتحمّل جزءً من المسؤولية، لكنّ ما فعلته ابنته بنفسها عندما أحبت رجلا لكنّها كانت ترتبط برجل آخر لتنقذ والدها من الإفلاس، أدرك أيضا خطأه هو عندما وافق على هذه الزيجة وهو يوقن أنّ هذا الخطيب الطّائش المدلّل المعروف بكثرة علاقاته الغراميّة وسهراته المشبوهة الذي وافقت عليه لا يليق بصغيرته، رفض هو في البداية لكنّ إصرارها على الموافقة وتأكيدها على قدرتها على تغييره جعله يقبل، كانت صغيرته تدرك الحالة الماليّة الصّعبة للشّركة وكان نسبه مع شقيقه سينقذه من الإفلاس... يا إلهي لماذا لم ير هذا؟؟ لماذا لم ير عذاب ابنته؟؟ وهي تربط مصيرها برجل بينما روحها معلقة بآخر... كانت صغيرته تضحي بنفسها لتنقذ عائلتها، قبلت أن تبيع روحها للشّيطان لتفادي إفلاس العائلة... أخبر الشّاب الذي يجلس بجانبه أسباب ابنته والحالة الّتي وصلتها بعد لقائها به أخبره أنّ الزّواج قد أجّل، لكنه سيلغيه لن يسمح لابنته أن تضحي بنفسها من أجله، هو والدها، هو من يجب أن يحميها ليس العكس ، سيغضب شقيقه ستفلس الشركة ، ذلك كله لا يهم ما يهم أن تعود الحياة لوحيدته ، سيبيع ممتلكات العائلة كلّها لو اضطرّه الأمر للبحث عن عمل ليعيل عائلته سيفعل، لكنّه لن يحمل ابنته عبء إنقاذ عائلة هو المسؤول الوحيد عنها.

كان قيس يتلقى كلّ كلمة من والد حبيبته كأنّها رصاصة تصيب قلبه كيف استطاع أن يكون بهذه القسوة لم لم يسمح لها بأن تشرح له عندما جاءت هي إليه ترجوه أن يسمعها؟؟ كيف طاوعه قلبه على إيذائها يا إلهي إنّها بالمستشفى بسببه حبيبته غير قادرة على الكلام بسبب عناده وأنانيته؟؟ لماذا نظر إلى وجعه ولم ير ألمها؟ لماذا أعماه كبرياؤه عن رؤية ألم حبيبته؟ لقد جرّب وجع الإحساس بخيانتها وظنّ أنّه لن يعرف وجعا أكبر من ذلك لكنّه كان مخطئا لأنّ وجعه في هذه اللّحظات يكاد يسكت روحه، جاءه صوت والدها:

ـ أريدك الآن أن تجيبني جوابا صريحا لا يحتمل الكذب أو المجاملة، هل تحبّ ابنتي؟

يحبها، لا، هو لا يحبها، هو يعشق أنفاسها الّتي تمنحه الهواء، هو لا يحبها، هو خلق في الدّنيا ليكون متيما بها لقد وصل إحساسه بها إلى درجة الوجد والشّغف، إلى درجة الهيام والغرام رفع رأسه ينظر إلى هذا الجالس بجانبه يتشرّب منه وجه الشّبه بينه وبين حبيبته ولم يطاوعه لسانه إلى على قول كلمة واحدة:
ـ أحبّها.

كلمة كانت كافية لهذا الرّجل الذي اختبر الكثير من الرّجال في حياته وعمله أن يتخذ قراره وهو يرى هذا الوجع المرسوم على ملامح محدثه.

ـ وما الذي تنويه بعد إلغاء زواج ابنتي؟

اتّسعت عيناه وهو يستوعب أنّ الحياة تعطيه فرصة أخرى يقدّمها له والد حبيبته.

ـ أريد أن أتزوّجها إذا وافقت أنت وإذا قبلت هي أن تعطيني فرصة العيش حياتي لأسعدها وأداوي جرحها الذي تسببت فيه دون قصد.

نظر الرّجل إلى هذا الشّاب دون أن يفصح وجهه عن شيء وهو يقول:

ـ لديك عمر بأكمله لتثبت ذلك ولكن لديك وقت قصير لتصل إلى ابنتي في المستشفى وتقنعها بذلك.

عندما وصلا إلى المستشفى دخل الوالد أولا كانت صغيرته متكئة بظهرها على السّرير في صمت مخيف، اقترب منها وجلس بقربها، أمسك يديها في حنان ورقة وهو يقول:

ـ حبيبتي لطالما كنت صديقا لك وكنت تخبرينني أسرارك الّتي تخفينها حتّى على والدتك، لكنّك أخفيت عنّي سرّك الكبير... لقد التقيت به.

رفعت رأسها تنظر إليه في تساؤل، وضع كفّه على وجنتها وهو يضيف:

ـ لقد التقيت بقيس يا حبيبتي.

اّتسعت عيناها دهشة وهي تسمعه يواصل:

ـ لقد مررت ببيت عمّك قبل المجئ إلى هنا أنهيت موضوع خطبتك لابن عمك أنت الآن حرّة.

سكت قليلا وهو يلاحظ ذبول عينيها ثمّ أمسك رأسها بكلتا يديه يقربه منه ليضع قبلة رقيقة لكنّها طويلة تحمل حجم حبّه لصغيرته، عاد ينظر إليها في حنان والد يرى ألم ابنته ويريد أن يبيع عمره ليعيد السّعادة إلى عينيها

ـ قيسك بالخارج لقد خطبك منّي وأنا ليس لدي أي اعتراض سيدخل الآن ليسمع منك ردّك.

عادت عيناها تتسعان وقلبها يقفز بداخلها تركها والدها وخرج فاسحا المجال لقيس للدّخول.

ما إن لمحت طيفه داخلا حتّى تحرّر صوتها وعلا شهيقها، أسرع إليها وقد انخطفت روحه منه وضاعت أنفاسه في تلك الخطوات الّتي تفصله عنها ، يأخذها في حضنه ويداها تتعلقان بظهر قميصه تشدان عليه كأنّهما تمنعانه من الرّحيل.... من الخروج من حياتها مرّة أخرى أخذ وجهها بين يديه يقبّل جبينها، ثمّ يعود ليضمها إليه وهو يقول:

ـ سامحيني حبيبتي، سامحيني لأنّي لم أسمعك، سامحيني لأنّي لم أر وجعك، سامحيني حبيبتي عاد ينظر إلى عينيها ودموعه على حافة عينيه وهو يضيف:

ـ امنحيني فرصة أخرى لأحبّك كما يعرف قيسك فقط كيف يحبّ ليلاه، امنحيني فرصة لأمحو ما خطّته يداي من ألم على صفحة وجهك، وافقي على زواجنا حبيبتي...

اشتدت شهقاتها وارتفع صوتها الذي سكت منذ رحيله عن حياتها ثمّ جاءه متهدّجا متقطعا.

ـ حبيبي أنت، سامحني حبيبي، أنت وحدك، حبيبي أنت.

ضمّها إلى قلبه وقد اختلطت دموعهما.

**********

ليلة عرسهما كان يراقصها قريبة من قلبه يضمّها إليه، بينما تتعلّق هي به يضع جبينه على جبينها عينيه في عينيها يردّد كلاهما كلمات الأغنيّة في وعود يقطعها كلّ منهما للآخر...

عندما وصلا لشقتهما فتح الباب بينما تقدّمت تدخل برجلها اليمنى، لكنّه أمسكها من ذراعها مانعا إيّاها من الحركة، نظرت إليه مستفسرة فانشقت شفتاه عن ابتسامة عريضة بينما أشرقت عيناه في بهجة وفرح وهو يقول:

ـ لقد قضيت سنوات من عمري أتمرّن وأمارس السّباحة في انتظار هذا اليوم لتدخلي أنت على قدميك

لم تفهم بداية ما تعنيه كلماته، لكنّ حركاته كانت واضحة وقاطعة وهو ينحني ويحملها بينما بدرت منها صرخة صغيرة متفاجئة وهو يتقدّم بها نحو عالمهما الجديد ذلك العالم الذي سيضمّ أغلب

ساعات فرحهما ولحظات حبّهما وسيشهد على زمن جديد لا ينتهي بجنون قيس وموت ليلى إنّما على سعادة قيس وهو يمتلك ليلاه، كانت ضحكاتها تتعالى وهو يقول:

ـ أنت خفيفة كالرّيشة كان عليّ أن أتدرّب أقلّ، أنهكت نفسي سنوات وأنا أتوقّع أنّ حمل زوجتي سيتطلب منّي مجهودا كبيرا.

أجابت هي ما بين ضحكاتها:

ـ أكنت تفضلني أثقل وزنا؟

أجاب وهو ينظر إلى عينيها.

ـ لا يهمني وزنك ولا شكلك المهمّ، أنك أنت، لأنّ روحي تعشق روحك أنت.

غطت سحابة حالمة عينيها و هي تقول :

ـ ما معنى أن تحبني يا قيس

أنزلها أرضا واقفة على رجليها احتضنت كفاه وجهها وهو يجيبها:

ـ أحبّك يعني أن أختصر العالم فيك فتصبحين أنت فرحي ووجعي، إذا نظرت عيناك إليّ أحسست أنّي أحسن البشر وإذا نظرت لغيري التهبت نار غيرتي، أحبّك يعني أن أحلم بك ولك وأطارد نجوم السّماء ومدارات الأرض كي أحضى بك، أحبّك

يعني أن تحتضنك أحلامي فتتلبّسني روحك ويمتزج عمري بعمرك فلا يعود لي وجود من دونك.

نزلت عبراتها متراكضة و هي تسمع كلماته امتدت يداه تمسحان دموعها

ـ لماذا تبكين حبيبتي ؟

رمت رأسها على صدره تتوسّده وهي تقول:

ـ لأنّ حبّك أيقظ مدامع الفرح بداخلي و اختصر العالم عندي في اسمك فأصبح للفرح والسعادة والحياة اسم واحد هو "قيس".

احتضنها بشدّة تتقدّم شفتاه إلى جبينها في وعد محموم ألّا يتركها أبدا، فروحه ملكها كما أصبحت روحها ملكه بينما يرتعش جسدها بين يديه مستسلمة له وقد اجتمع عالمهما أخيرا.

تمت في 2016/08/06

## عودي يا وجعي... يكاد يقتلني الحنين

كانا يرتاحان في غداء متأخّر بعد يوم طويل ومتعب لكنّه سعيد ومبهج قضياه في اقتناء الأشياء النّاقصة لبيتهما الجديد، بعد قرابة الشّهرين سيجمعهما هذا البيت معا سيصبح زوجها أمام العالم، هذا الذي يرقد في عينيها رسمه ، خطبها خطبة تقليديّة بعد أن رأتها والدته في أحد الأفراح ارتاح له قلبها ولكنها لم تتوقع أبدا أنّها أثناء فترة الخطبة ستعشقه هكذا، لقد اكتشفت أيّ رجل رائع هو، كان يحادثها كلّ يوم يسألها عن يومها ويقصّ عليها يومه ثمّ أحلامه حتّى جاء ذلك اليوم الذي خرجا معا، ليفاجئها أنّه كان يعرفها قبلا رآها مرّة واحدة تحنو على طفل صغير كان يبكي تحاول إسكاته تداعبه وتدغدغه حتّى هدأ الطفل وبدأ في الضّحك ثمّ استكان في حضنها. لتضع هي قبلة رقيقة على خدّه وتنصرف معه، علقت صورتها هذه في مخيلته، كان يحسد هذا الرّجل الذي فاز بها بل وصل به الأمر ليحسد هذا الطّفل الذي فاز بقبلتها على خدّه ولكنّه كان يعرف أنّها مجرّد سراب مرّ بحياته ولا يمكن أن يتحوّل إلى حقيقة، بعد إلحاح من والدته قرّر أن يذهب معها لرؤية فتاة رأتها في عرس ما ولم تتوقف عن مدحها، فوجئ عندما خرجت تلك الفتاة، ليجدها فتاة سرابه تتحوّل بمعجزة إلهية إلى حقيقة متجسدة في واقعه أمام عينيه، علم فيما بعد أنّ الطّفل هو ابن شقيقتها الذي تعشقه ولم يستطع قتل غيرته منه لأنّها تعشقه وتعتبره ابن روحها حتّى بعد أن صارحها بحبّه وأجابته هي أنّها تحبّه أيضا، كان يريد أن يسكنها وحده دون

العالم، أن تهيم به وحده، فلم يدخر جهدا في إسعادها في مفاجأتها في إرضائها وحبّها يكبر بداخله يوما بعد يوم بينما كانت هي تفقد كلّ أسلحتها أمامه، فتغرم به وتصبح متيّمة به.

**********

جالسا قبالتها يتأمّل تفاصيل وجهها الذي يعشق كلّ تفصيلة...

فيه سألته بدلال ممزوج بالخجل.
ـ لماذا تنظر إليّ هكذا؟
ابتسم قائلا:
ـ أحفظ تفاصيلك.
سألته وهي تلوي شفتاها دلالا تتصنع العتب:
ـ أولم تحفظها بعد؟
أشرقت ابتسامته الّتي اتّسعت وهو يقول:
ـ كلّما حفظتها فاجأتني تفصيلة جديدة حتّى بتّ أشكّ في قدراتي العقليّة

مررت ظاهر أناملها على خدّه وقد أشرق وجهها وهي تقول:
ـ استمرّ إذن في النّظر إليّ
انفجر ضاحكا وهو يجيب:
ـ عرفت أوّل مرّة رأيتك فيها أنّك ستكونين سبب جنوني.
أردفت بدلال وحبّها يفضحها:
ـ أريدك مجنونا هكذا حتّى تقرأ كلّ النّساء تفاصيلي على وجهك فلا تقربك أنثى غيري.

كان فارس في عمله بمحلّ والده لبيع الأدوات الكهرومنزليّة عندما رنّ هاتفه أجاب مبتسما وهو يرى اسم حبيبته على الشّاشة لكنّه فوجئ بصوت رجولي يحدّثه، انقبض قلبه فجأة وهو يسمع المتّصل يسأله

ـ هل أنت السّيّد فارس؟

ـ نعم، ماذا يفعل عندك هذا الهاتف من أنت؟

ـ أعذرني سيّدي لكنّني سأنقل إليك خبرا سيئا.

ـ ماذا هناك؟

ـ صاحبة هذا الهاتف تعرضت لحادث مرور، هي الآن في طريقها إلى المستشفى، لقد وجدت رقمك آخر رقم اتّصل بها...

لم يعد فارس يستوعب بقيّة الكلام لا يعرف كيف قطع المسافة الفاصلة بين المحلّ وبين المستشفى عندما وصل وجد سيارة الإسعاف قد وصلت قبله ببضع دقائق، وقف مفزوعا يرى حبيبته مضرجة بدمائها يمنعه المسعفون من الاقتراب منها ويسرعون بها إلى غرفة العمليّات بينما روحه تطلب اللّحاق بها والرّحيل معها إن هي رحلت.

واقفا هناك يطوي الممرّ طيا ذهابا وإيّابا، يكاد الخوف يقتله عندما خرج الطّبيب أخيرا أسرع إليه يسأله:

ـ كيف حالها؟

ـ لقد أوقفنا النّزيف الدّاخلي، أعضاؤها سليمة، لكن يبدو أنّها دخلت في غيبوبة سنراقب حالتها وأثناء الأربع والعشرين ساعة القادمة ستتّضح الأمور أكثر.

تركه الطّبيب واقفا هناك بينما كانت البرودة تسري في كامل جسده نبضات قلبه تتسارع ويسكنه خوف رهيب، لا يمكن أن يفقدها ليس بعد أن وجدها.

بعد خروجها من غرفة العمليات وضعت في غرفة منفردة وسمح له برؤيتها، عندما استعاد وعيه اتّصل بوالدها لينقل إليه الخبر ثمّ بوالده هو.

**********

مرّت أربعة أشهر على دخولها في غيبوبة كاملة عن الحياة يجلس فيها إلى جانبها نفسه تناجيها كلّما جاء لزيارتها خمس مرّات في اليوم، أصبح الجميع يعرفه هنا بالمستشفى الذي ترقد فيه.

يحكيها أيّامه الّتي تمرّ متثاقلة بدونها مريرة المذاق، عن قلبه الذي اشتاق وحلمه بيوم اللّقاء عندما تفتح عينيها لتجده أوقف عمره بانتظارها، وما قيمة عمره من دونها ما قيمة الأيّام والأحلام إن لم تشاركه فيها.

ـ عودي إليّ حبيبتي عودي ودعي الحياة تشرق من جديد.....

بيتنا اكتمل بناؤه والشّرفة دهنتها بلونك المفضل، زرعت في الحديقة ياسمينك الذي تعشقين علقت صوّرك على الجدران وكذلك صورتي كما تحبين، طبعت بطاقات العرس وتركت لك تحديد التّاريخ، عودي إليّ يا وجعي فعمري بانتظارك، عودي يا عمري عودي إليّ.

عاد فارس إلى البيت متأخّرا كعادته بعد عودته من المستشفى ليجد والدته مستيقظة بانتظاره.

ـ مساء الخير أمّي لم لم تنامي إلى الآن؟

ـ مساء الخير حبيبي كنت بانتظارك أريد الحديث معك قليلا.

ـ خير يا أمّي تفضلي.

جلس فارس بجانب والدته يسمعها.

ـ حبيبي خطيبتك ترقد في المستشفى منذ أربعة أشهر غير واعيّة بأيّ شيء أنت أوقفت حياتك معها وأهملت عملك، تمضي أغلب الوقت عندها بالمستشفى وليتها كانت مدركة لذلك، لقد فعلت ما بوسعك يا ولدي، انتظرتها وقتا كافيا لكنّها لم تفق من غيبوبتها، عليك يا بني أن تستعيد حياتك لا أحد سيلومك، دعني أتّصل بوالدتها لنفسخ الخطبة، أهلها سيتفهمون ذلك.

وقف فارس غير مصدّق لهذا الذي تقوله والدته.

ـ أنا لا أبقى معها لأفعل ما عليّ كواجب، لا يهمني ما يقوله والداها ولا أيّ شخص آخر، رُميلة خطيبتي وأنا لن أتخلى عنها أبدا.

ـ حبيبي خطيبتك يمكن ألا تستيقظ أبدا من غيبوبتها.

ـ رُميلة ستعود إليّ ولو تطلّب الأمر أن أنتظرها عمري كلّه فسأفعل.

ـ لكنك يا ولدي تضيع عمرك هباءً غدا ستنساها، تزوّج بأخرى لتنجب لك أطفالا العمر لن ينتظرك يا ولدي

كانت هذه الكلمات تجرح داخله وتشعل نار غضبه، لكنّه كان في حضرة والدته لذلك أرغم نفسه على كتم غضبه وتصنع الهدوء.

ـ أمي انسي هذا الأمر، أنا لن أتزوّج بغير رُميلة... تصبحين على خير.

استدار متّجها لغرفته تاركا والدته في حيرتها المعتادة، قلقها على ولدها يزداد كلّ يوم وهي تراه يوقف حياته على أمل أن تستيقظ خطيبته من غيبوبتها لكن هذا الأمل يبدو لها بعيدا حتّى والدي رميلة هزّهما الشّكّ وقلت زيارتهما لابنتهما كأنّهما يستعدان ليوم رحيلها الأخير حتّى لا يفجعهما الخبر، إلّا هو، ابنها هو الوحيد الذي يرفض أن يصدق، الوحيد الذي يرفض أن يستسلم، هي تخشى عليه من وقع الصّدمة تخاف عليه من يوم يقابله في المستشفى طيفها وخبر رحيلها، تخشى عليه أن يمضي عمره

وهو ينتظرها بينما هي في سباتها لا تحسّ بوجوده ولا بموته البطيء على وقع انتظار عودتها.

**********

كان جالسا بجانب سريرها يمسك كفّها يحضنها بين يديه ويناجيها كعادته، وحده قلبه يسمع ردّها وحدها روحه تدرك أنّها تسمعه...

ـ أعلم أنّك لن تستسلمي، أتذكرين حبيبتي يوم أصريتِ أن أعلّمك ركوب الدّراجة عندما ذهبنا إلى ذلك الطّريق الجانبي وبدأت تعليمك حتّى تعبت أنا ، لكنّك لم تملي ولم تكلي واصلت المحاولة حتّى نجحت، عنيدة أنت ولا تستسلمين، أتذكرين حبيبتي بدأ المطر بالنّزول وأنا أطلب منك المغادرة، لكنّك وقفت تبتسمين رافعة رأسك للسّماء تتلقين حبّات المطر على وجهك وتقولين أريد أن يشهد المطر على حبّنا كما سبق وشهدت السّماء، لا أريد لشيء في هذه الدّنيا أن يجهل حبّي لك.

تلألأت الدّموع في عينيه وهو يضيف....

ـ يومها قاومت شياطين الأرض والسّماء كي لا آخذك في حضني وأذيبك بقبلاتي أسرعت بالعودة بك إلى منزلك متحاشيا النّظر إليك وأنت تسألينني طيلة الطّريق ماذا بي، عندما أوصلتك إلى باب بيتك أمسكتك من مرفقك وأدرتك إليّ وأنا أقول: "عندما تنوين على قتلي على الأقل لا تختاري مكانا خاليا أين يمكن أن يصيبك مكروه بعد موتي ولا تستطعين العودة وحدك.

نزلت دمعة من عينيه مسحها بظاهر قبضته وأكمل:

ـ عندها ارتميت في حضني لتزيدي ناري التهابا بينما كنت أفهمك ألّا تفعلي ما يفقدني السّيطرة على نفسي كنت ببراءة طفلة تفعلين العكس تماما.

**********

أجبر والد فارس ابنه على البقاء في المحلّ طيلة الصّباح بحجّة أنّ هناك سلعة قادمة وأنّه لن يكون هناك لاستقبالها، كلّ تفكيره كان عندها، لماذا لا يفهمه أحد، لماذا لا يستوعبون أنّ حياته بدونها موت، لماذا لا يدركون أنّ بقاءه بجانبها يمنحه القوّة على الاستمرار في الحياة وأنّ قلبه مازال ينبض فقط لأنّه يسمع دقّات قلبها هي ، ما إن رأى والده داخلا حتى وقف يستعد للمغادرة لكن صوت والده استوقفه

ـ هل ستقضي بقيّة عمرك هكذا تنتظر وهما لن يتحقق.

رفع فارس نظراته يمنع نفسه من إطلاق العنان لغضبه.

ـ رُميلة ستستيقظ وعمري أنا حرّ فيما أقضيه فيه.

أكمل طريقه خارجا لكن والده أوقفه بيده الّتي حطت على كتفه.

ـ أنت ابني ولا يمكنني أن أراك تفسد حياتك وأبقى ساكتا.

استدار إلى والده الذي قرأ في عينيه وجعا يمكنه هدُّ أعتى الرّجال.

ـ لا أستطيع أن أكمل حياتي وأتجاهل وجودها هناك ترقد ضعيفة بحاجة إليّ، أنا أحتاجها في حياتي حتّى لو بقيت عمرها كلّه ممدّدة على ذلك السّرير... لا تطلب منّي أن أتركها لأنّك بذلك تطلب منّي أن أترك روحي

خرج من المحلّ متجّها إلى أين وصلت روحه قبله وهو يسابق دقّات قلبه الّتي تسبق دقّات الزّمن

ـ كيف حالك حبيبتي أنا آسف لأنّي تأخّرت، اليوم كان لدي عمل مهمّ بالمحل ووالدي لم يكن موجودا

ابتسم وهو يضيف...

ـ أعلم أنّك تكرهين عندما أتأخّر عليك وتفقدين عقلك.

اختفت ابتسامته وهو يقول آملا:

ـ ليتك تفقدين عقلك الآن وتصرخين بي كما كنت تفعلين سابقا كلّما تأخّرت عليك.

سكت قليلا ثمّ أردف قائلا:

ـ كنت أحمقا لكنّني أعدك ألّا أتأخر مرّة أخرى، استيقظي أنت فقط، تذكرين آخر مرّة وصلت متأخّرا ووجدتك تغلين غضبا بدأت تصرخين في وجهي وتقولين لي متى تتعلّم احترام مواعيدك، أنت رجل فظّ لا تجيد معاملة النّساء.

سكت هنيهة يكتم صوت أنينه الذي يوجعه ثمّ واصل...

ـ يومها أمسكت يدك وأنا أقول لك إذا لم تسكتي سأسكتك بقبلة تعلّمك كيف تحترمين زوجك المستقبلي

ابتسم وهو يتذكر ردّة فعلها.

ـ أخرصك تهديدي وكانت هذه أوّل مرّة تقفين أمامي صامتة عاجزة عن قول شيء بينما انفجرت أنا ضاحكا من الرّعب الذي ارتسم على وجهك.

و هو خارج من عندها صادف والدها الذي سلّم عليه وطلب منه الحديث جانبا...

ـ يا ولدي ما سأقوله صعب عليّ و لكنّه الواقع يفرض نفسه رُميلة في عالم آخر تركتنا رغما عنها وأنت صبرت بما فيه الكفاية، لذا أنا أحلك من هذا الرّباط الذي كان بينكما.

انتفض داخل فارس ورد غاضبا.

ـ لماذا لا أحد منكم يفهم أنّ ما بيني وبين رميلة أكبر من مجرد خطبة أو كلمة أعطيتني إياها حين وافقت على خطبتنا؟ ليس لك أيّ حقّ في فكّ هذا الرّباط، وحدها رُميلة من تملك حقّ إخراجي من حياتها.

انصرف تاركا إياه واقفا يحاول استيعاب ما قاله خطيب ابنته للتو.

**********

رغم عينيها المغمضتين، رغم عدم إدراكها لما يدور حولها إلّا أنّ كلماته كانت تنساب في حنايا روحها لتوقظ سكون جسدها. تائه هو في مناجاتها كعادته منذ أكثر من خمسة أشهر دون أن تردّ بكلمة أو حتّى بحركة.

ـ عودي حبيبتي .... عودي يا عمري لأعيش معك أحلى السّنين... عودي يا وجعي يكاد يقتلني الحنين

أمعن النّظر ليتأكد من ذلك الذي يراه مسح دموعه المتهالكة على خديه ليرى دمعة يتيمة تنساب على وجنتها انتفض واقفا يحني رأسه قريبا من وجهها.

ـ افتحي عينيك يا عمري... من أجل حبيبك افتحي عينيك... أعلم أنّك تسمعينني أعلم أنّك لم تتخلي عنّي... افتحي عينيك يا عيني حبيبك...
رأى جفناها يتحركان في تثاقل بينما تتحرك دقّات قلبه في تسارع، نظرت إليه كمن يستكشف وجها جديدا لم يره قبلا كادت خفقات قلبه تغادره ألم تعرفه

ـ أنا هنا حبيبتي... كنت هنا دائما... وسأظل.

لحظات ربّما ثوان فقط مرّت عليه كدهر يترقّب حركات وجهها الّتي انفرجت أخيرا عن ابتسامة متأنية، وضع كفه يمسح على شعرها وهو يقول:

ـ كنت واثقا أنّك لن تخذليني... لقد عدت حبيبتي...

لتتّسع ابتسامتها وهي تقول في وهن بصوت هزيل:

ـ صباح الخير حبيبي.

أشرقت ابتسامته تغالب دموعه ضحك منتشيا وهو يقول:

ـ صباح الحياة يا عمر حبيبك... صباح الأمنيات يا أمنية حبيبك... صباح التّفاؤل يا أمل حبيبك.

بعد ثلاثة أسابيع من الغنج والدّلال بين يديه كانت ترقص معه بحذر شديد في عرسهما مازالت ضعيفة لكنّ الخطر زال، في عالمها الذي غرقت فيه وحده صوته أعادها للحياة وحده هذا الصّوت الذي أدمنته أنار لها درب الرّجوع لتشرق حياتهما من جديد.

فتحت رميلة الثّلاجة تنظر إلى ما فيها تستعد لتطبخ شيئا قبل عودة زوجها من العمل لكنّها صرخت فجأة وهي تحس بذراعين تطوقانها من خصرها لتعرف بعدها رائحته الّتي تميزها وهو يضع خدّه على خدّها ليتكئ ظهرها على صدره.

ـ ماذا تفعلين؟

ابتسمت وهي تجيب:

ـ أريد أن أطبخ شيئا لحبيبي قبل عودته.

ـ ألم يأمرك حبيبك ألّا تطبخي شيئا وألّا تبذلي أيّ مجهود وأن تنتظري عودته فقط.

جاءه صوت ضحكتها العذبة وهي تقول:

ـ لو طاوعت حبيبي سأقضي عمري كلّه في الرّاحة مضت ثلاثة أشهر على خروجي من المستشفى وهو مازال يصرّ أنّني بفترة نقاهة.

ـ حبيبك يخاف عليك من أيّة انتكاسة، يمكنه أن يموت لو أصابك مكروه.

اختفت ابتسامتها، حررت قبضة يديه من على خصرها واستدارت تواجه بحر عينيه.

ـ لقد أكّد الطّبيب أنّي شفيت تماما، لا أريدك أن تقضي عمرك في القلق عليّ، أنا بخير ولن يحدث لي شيء مادمت أنت في حياتي، لن أسمح بأن يصيبني مكروه لأنّي لن أسمح بأن تعيش ذلك العذاب مرّة أخرى.

سحبها إليه يضمّها وهو يقول:

لو تعرفين كم أحبّك لأشفقت على هذا القلب الذي يحملك بداخله:

شددت قبضة يديها على ظهره وهي تقول:

ـ أنا أعرف، لقد أخبرتني بذلك بالّتفصيل طيلة خمسة أشهر كاملة عندما كنت نائمة بالمستشفى وأنا أحبّك أكثر ممّا يمكن لعقلك تصوره.

رفعت رأسها تنظر إليه وتبتسم.

ـ دعني الآن أطبخ لك شيئا تأكله.

حملها من على الأرض وهي تصرخ وتضحك بينما صوته الحبيب يؤكّد لها ضاحكا:

ـ سآكلك أنت، أنت طبقي المفضّل الذي لا يمكنني مقاومته.

تمت في 21 /2016/08

# الفهرس


| | |
|---|---|
| إهداء | 3 |
| نبض الأنوثة لا يموت | 5 |
| مازال في الحب بقية | 59 |
| أتحبني بعد الذي كان | 156 |
| خطوات قلب مكسورة | 200 |
| عودي يا وجعي يكاد يقتلني الحنين | 24 |
| الفهرس | 238 |